تقرؤون في هذا العدد المقالات الفائزة بالمراكز الثلاثة الأولى في مسابقة أقلام موهوبة

رواء

مجلة فكرية دورية

- الأمة أولاً .. قراءة في مفهوم الأمة والدولة عند هوفمان
- الفقه الإسلامي..مفهومٌ وتاريخ وحضارة
- الفصل بين الجنسين أم الاختلاط في السياقات العلاجية والمهنية والتعليمية؟
- تفسير التاريخ وإشكالاته بين المنهج الإسلامي والمناهج البشرية

الغرب يأكل آلهته

20

العدد العشرون
شوال ١٤٤٤ هـ
أيار/ مايو ٢٠٢٣

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

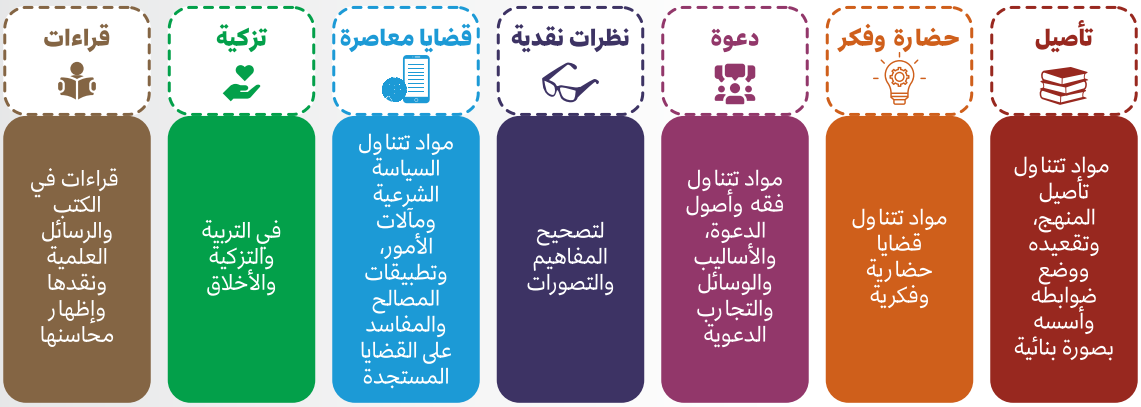

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

الغرب يأكل آلهته ٢
الافتتاحية

الأمة أولاً .. قراءة في مفهوم الأمة والدولة عند هوفمان ٩
د. محمد بن عبد الله السلومي

الفقه الإسلامي..مفهومٌ وتاريخ وحضارة ١٦
د. عمار العيسى

الفصل بين الجنسين أم الاختلاط في السياقات العلاجية والمهنية والتعليمية؟ ٢٢
أ. هدى عبد الرحمن النمر

الهدايات القرآنية للمتدبِّرين ٢٧
د. عمر النشيواتي

تفسير التاريخ وإشكالاته بين المنهج الإسلامي والمناهج البشرية ٣٤
م. طاهر صيام

كيف نتذوق الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم؟ ٤٢
أ. محمد غياث إستانبولي

حقوق المرأة وظاهرة النسوية ٤٨
أ. علاء الدين النصار

الشّباب وضياع الهُويّة ٥٤
أ. عبد المنعم العلي

قراءةٌ في كتاب: (عطاء الإسلام الحضاري) لأنور الجندي ٦٢
د. فاطمة علي عبُّود

بأقلام القراء ٧٠
مجموعة من القراء

إنَّ معيَ ربي ٧٢
د. خير الله طالب

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد
مدير التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشن
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org
rawaamagazine

الغرب يأكل آلهته

تمتَّع الغرب ردحًا من الزمن بكونه مضربًا للمثل في الحرية والعدالة، وقِبلةً للمهاجرين الساعين إلى العيش الكريم بعيدًا عن الاستبداد والتسلّط الذي تعيشه العديد من دول العالم، وأصبح مهاجَرًا لكثير من العقول والطاقات، حتى قيل في مدحه: «رأينا إسلامًا ولم نرَ مسلمين»، وتوقّع آخرون: «شروقًا للإسلام من الغرب»[١].

ووصل الحال إلى التبشير بالنموذج الغربي في الفكر والحكم والسياسة على أنّه أفضل ما توصّلت إليه البشرية، وأنّه لا يسعُ أحدًا الخروج عنه أو تجاوزه، ووصل بالبعض إلى اعتبار الإنسان الغربيَّ «خاتم البشر»! وأنّ التاريخ إلى نهايته سيسعد بالنموذج الغربي للحياة كما زعم[٢].

لكن فئةً من أصحاب الفكر والنظر -من المسلمين وغيرهم- لم ينخدعوا بهذه المظاهر، ونظروا إلى حقيقة هذا الفكر ومآلاته، فحذّروا منه وتنبّؤوا بسقوطه وعدم صلاحيته للاستمرار.

نظرة إنصاف:

لا بدَّ من الإشارة ابتداءً إلى أنّ نقدَ الغرب وبيانَ أخطائه لا يعني إنكارَ ما فيه من خير؛ فهذا من الظلم الذي لا يرضاه ديننا؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] قال ابن كثير: «أي: لا يحملنَّكم بُغضُ قومٍ على ترك العدل فيهم، بل استعمِلوا العدل في كلِّ أحد، صديقًا كان أو عدوًّا»[٣].

(١) أمثال هذه العبارات ليست قواعدَ لازمة لا تتغيّر ولا تتبدّل، بل هي وجهات نظر لمن أطلقها، وقد يكون لها وجهٌ في وقت من الأوقات أو ظرف من الظروف.

(٢) من أشهرهم: فرانسيس فوكوياما في كتابه: (نهاية التاريخ وخاتم البشر).

(٣) تفسير ابن كثير (٦٢/٣).

فمن الإيجابيات الموجودة فيه: التقدُّم العلمي والصناعي، والتطور في العلوم الإنسانية والإدارية.

كما أنَّ فيهم من الخصال ما يعين على بقاء ملكهم واستقرار حياتهم، قال الشَّافعيُّ: «وَلَمَّا أُتِيَ كِسْرَى بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَزَّقَهُ، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: (يُمزَّق مُلْكُهُ)، وَحَفِظْنا أَنَّ قَيْصَرَ أَكْرَمَ كِتَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَضَعَهُ فِي مِسْكٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ثَبَتَ مُلْكُهُ)»[1].

ومن الآثار الجديرة بالتأمُّل: حديثُ عمرو بن العاص ﷺ المشهور وفيه: أنَّ المستورد ﷺ قال: إنه سمع النبي ﷺ يقول: (تَقُومُ السَّاعَةُ والرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ). فَقَالَ له عَمْرٌو: أَبْصِرْ ما تَقُولُ، قالَ: أَقُولُ ما سَمِعْتُ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذلكَ، إنَّ فيهم لَخِصالاً أَرْبَعًا: إنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وأَسْرَعُهُمْ إفاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ ويَتِيمٍ وضَعِيفٍ، وخامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وأَمْنَعُهُمْ مِن ظُلْمِ المُلُوكِ»[2]. وقد قال ﷺ في النجاشي: (لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ)[3].

> **للعالَم قوانين وسُنن كونية في إقامة الدول وازدهارها تجري على جميع البشر، مَن أَخَذَ بها حصل له نوعٌ من التمكين والاستقرار، كصلاح القيادة، وإقامة العدل، وحسن التخطيط، ورعاية الفقراء والضعفاء، والمنع من الظلم. فإن تقدَّمت بعض الأمم وسادت لأخذها بهذه السنن فلا يعني أنهم على حق**

وبقاء الملك والاستقرار السياسي بسبب هذه الخصال هو من سُنن الله الكونية والقوانين الجارية على البشر في إقامة الدول وازدهارها؛ وبالتالي فإنَّ مَن أخذ بأسباب البقاء والقوة كُتب له ذلك ولو كان غير مُسلِم، أو اختلط بعمله باطلٌ كثير، قال ابن تيمية: «الجزاء في الدنيا مُتَّفق عليه أهلُ الأرض، فإنَّ الناس لم يتنازعوا في أنّ عاقبةَ الظلم وخيمة، وعاقبةَ العدل كريمة، ولهذا يُروى: «الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»[4].

هذا في الجملة.. لكن متى شاعَ الظلمُ فيهم، أو انجرفوا وراء الفواحش والمنكرات؛ حلّ عليهم العقاب الذي هو من سنن الله في القرى الظالمة، وهذا يفسّر زوالَ العديد من ممالكهم ودولهم، وخرابَ العديد من مُدنهم على مرّ التاريخ.

كما أنّ بقاءَ الدول واستقرارَ الأحوال السياسية فيها عمومًا لا يعني أنّهم النموذج المحتذى لتحقيق السعادة والازدهار في سائر أمورهم وتفاصيل حياتهم؛ فالأخذُ بالربا متوعّد عليه بالمحق، والإغراقُ في الفواحش متوعّد عليه بالأمراض الجديدة العصيّة على العلاج، والبعدُ عن شرع الله متوعّد عليه بالعيشة الضنك، ... وهكذا.

الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية:

الفكر الغربي يقوم على أسسٍ في غاية في الخطورة:

- استبعادُ الإله من حياة البشر، وتأليهُ الإنسان بدلاً منه.
- تأليهُ العلم التجريبي مع استبعاد أي مصدر آخر للعلم، كالوحي والخبر الصحيح.
- تصورُ الحياة على أنها صراعٌ دائم بين الإنسان والإله، والحكومة والشعب، وفيما بين مكونات المجتمع، وبين الرجل والمرأة، ... وهكذا.
- اتخاذُ تحصيل المنفعة واللذة معيارًا أخلاقيًا، ومقياسًا لتقييم الأمور.
- الفردانية: وهي فلسفةٌ أيديولوجية تعظِّم القيمة المعنوية للفرد، وتدعوه إلى ممارسة أهدافه ورغباته ووضعها فوق اعتبارات الدولة والجماعة، واعتبار ذلك معيارًا آخر لتقييم الأمور ووزنها.

و«القيم الإيجابية» والحرّيات التي يتغنّى بها الغرب وأنصارُهُ اليوم ليست راسخة الأركان قوية البنيان؛ وليس لها جذورٌ بعيدةٌ في التاريخ الأوروبي القديم أو حتى الحديث:

- فالطبقية كانت سمةَ المجتمع الإغريقي، والطغيانُ والاستعبادُ في الدولة الرومانية والبيزنطية سمةٌ ظاهرةٌ، وفي ظلِّ الحكم الكَنَسي

(١) الأم للشافعي (٤/١٨٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٧٧٣٤). والأحباش كانوا نصارى في ذلك الزمان، وبينهم وبين الإمبراطورية البيزنطية تواصل.
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/٦٢-٦٣).

البابوي كان الاستبدادُ على أشُدّه، وفي جميع النواحي الدينية، والسياسية، بل حتى العلمية التجريبية، ومن خالف ذلك اتُّهم بالهرطقة، وقد يُعاقَب بأقسى العقوبات.

* قيامُ الثورات الأوروبية -والفرنسية على وجه الخصوص- جاء ردَّ فعلٍ على انعدام هذه القيم وطلبًا لتحصيلها، لكنّها جاءت في صورة تحرُّر شامل من الدين الذي تمثّله الكنيسة والاستبدادِ الذي تمثّله الملَكية، حتى اشتهر شعار «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسِّيس» بما يحملُه من إيحاءات دموية؛ مما يعطي صورة واضحة عن جوِّ التحرُّر الذي شكَّل العقل الأوروبي والغربي الحديث، وشعاراته التي جاءت ردود أفعال متطرّفة؛ مما جعلها قاصرةً ناقصةً غير أصيلة، وبالتالي غير متوازنة.

* كثيرٌ من مواثيق الحضارة الغربية وتطبيقاتها المعاصرة إنما وُضعت في العصر الحديث، وبالتحديد: بعد الحربين العالميتين اللّتين كادتا أن تُفنيا القارَّة الأوروبية بأكملها[1]، فتداعت الدُّول القوية حينها إلى تأسيس عُصبة الأمم ١٩١٩م بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ثم منظمة الأمم المتحدة ١٩٤٥م بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، واللتين نصّتا على كثير من الأسس التي ترفع راية تنظيم العلاقة بين الدول وتنادي بحقوق الإنسان؛ لكن من منطلق الدول العظمى التي لم ولن تتخلى عن مشروعاتها في السيطرة على العالم ومقدّراته ولو على حساب شعوب العالم الأخرى.

* والجانب الأهم: أنَّ هذه القيم ليست صادرةً عن أصلٍ دينيٍّ ووحي منزّل من لدن حكيم خبير، يعلم ما يصلُح للبشر جميعهم في كلِّ وقتٍ وحال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ بل هي نتاج العقل البشري القاصر، وتجربته المحدودة، ومعاناته الملموسة، وتحيُّزاته الفكرية والنفسية، فهي لا تصلُح للاستمرار ولا لجميع الناس والمجتمعات؛ لأنَّها تفتقد للقواعد الضابطة والمرجعية الرقابية، وتطبّق وفق معايير ذاتية وبحسب المصلحة المترتبة عليها.

من أهم ما يؤخذ على القيم الغربية أنَّها ليست صادرةً عن أصلٍ دينيٍّ ووحي منزّل، بل هي نتاج العقل البشري القاصر، وردَّة فعلٍ على ظروفٍ عاشتها؛ لذا فإنَّها لا تصلُح للاستمرار ولا لجميع الناس والمجتمعات؛ لأنَّها ليست أصيلة ابتداء، وتفتقد للقواعد الضابطة والمرجعية الرقابية، وتطبّق وفق معايير ذاتية وبحسب المصلحة المترتبة عليها

نظرة في خلفية المنجزات:

أثمرت موجة المطالبة بالحقوق والحرّية نتائج إيجابية في بعض الاتجاهات مثل: تحرير العبيد وتحريم الرقّ الذي كان تجارة مزدهرة في ظلّ الحملات الاستعمارية، وتصحيح النظرة للمرأة من مخلوق دونيٍّ منزوع الحقوق إلى إنسان له حقوق، وقد نتَج عن ذلك كلّه صور متقدّمة من التجارب السياسية.

لكن هل كانت دعوات تحرير العبيد وتحرير المرأة ورعاية الحقوق -مثلاً- أخلاقيةً محضة؟ أم كان وراءها أسبابٌ ودوافعُ سياسيةٌ أو اقتصاديةٌ أو اجتماعية؟

لقد كان «إعلان تحرير العبيد ١٨٦٣م» الذي أصدره الرئيس الأمريكي أبراهام لينكولن ذا خلفية سياسية ضمن أجواء الحرب الأهلية الأمريكية، وكان موجهًا للولايات الجنوبية (الكونفدرالية) المتمرّدة فحسب، وكانت هذه الولايات حافلةً بالعبيد الذين يشكّلون اليد العاملة في الزراعة، بخلاف الشمال الذي كان اقتصاده يرتكزُ على الصناعة، فكان إعلانُ تحرير العبيد، وإتاحةُ انضمامهم للجيش الاتحادي والبحرية، من باب تحريضهم على دعم قضية الاتحاد، وعندما انتهت الحرب كان حوالي ٢٠٠ ألف من السود قد شاركوا في جيش الاتحاد! ثم تتابع الأمر بعدها ليشمل جميع الولايات الأمريكية، وهكذا حتى شمل بقية بلدان العالم، والملاحَظ هنا أنّ الدافع الأساسي كان سياسيًا مصلحيًا، ولم يكن ذا أرضيةٍ أخلاقيةٍ قيَمية، بدليل أنَّ التمييز والفصل العنصري بقي قائمًا في الولايات المتحدة حتى عام ١٩٤٨م؛ حيث كان الجيش يتكوَّن من وحداتٍ للبيض وأخرى مُدمجة، فأصدر الرئيس «ترومان»

(١) هذه الحروب -بما رافقهما من ويلات- لم تكن إلا تطبيقًا عمليًّا للأفكار السائدة في الفكر الأوربي كالتفوُّق العرقي، والأحقِّية في السيطرة والاستعمار، والرغبة في إخضاع العالم لشعبٍ، ونحوها.

قرارًا يقضي بدمج القوات المسلحة، رغم وجود معارضةٍ شديدةٍ في الكونجرس لهذا القرار، وبقيت الممارسات العنصرية بدرجةٍ أو بأخرى حتى يومنا هذا.

كذلك فإنّ تحرير المرأة وإخراجَها من بيتها وإقناعها بالعمل كان له بُعدٌ اقتصادي، يتمثّل في استغلالها في المصانع والمعامل بعد موت الكثير من الرجال في الحرب العالمية الثانية، ومن جانبٍ آخر للاستفادة من الضرائب المفروضة عليها، وهذا بالإضافة إلى استغلالها في الأغراض الشهوانية، واعتبارِها أداة جذبٍ تسويقية كما هو معروف.

والكثيرُ من القيم كالصدق، والأمانة، وحفظ العهد، واحترام المواعيد، وحقوق الإنسان، كحقّ المساواة، وحقّ التديُّن، وحقّ الاحترام، وحقّ التنقل، ونحو ذلك؛ كلُّها مرتبطةٌ بالمصالح الاقتصادية والاجتماعية؛ التي لا تستقيم من دونها.

ويجمع تلك الحقوق والمبادئ كلَّها أنَّها لم تنشأ ابتداءً عن اقتناعٍ ورغبة، بل جاءت بعد نضالٍ طويل ومطالباتٍ كثيرة، وصراعاتٍ عبر عقودٍ من الزمن، فكان في الاعتراف بها نوعٌ من الانصياع لقوة تلك المطالبات أو انتصارها.

> **الكثيرُ من القيم الإيجابية السائدة في الغرب كالصدق، واحترام المواعيد، وحقوق الإنسان، وغيرها؛ مرتبطة بالمصالح الاقتصادية والاجتماعية التي لا تستقيم من دونها. فهي لم تنشأ ابتداءً عن اقتناعٍ ورغبة، بل كان خلفها مصالح عديدة، وجاءت بعد نضالٍ طويل وصراعاتٍ مريرة، وكان في الاعتراف بها نوعٌ من الانصياع لقوة تلك المطالبات أو انتصارها**

عوامل السقوط من الداخل[1]:

الحضارةُ الغربية المعاصرة ترتكزُ على مزيجٍ مكوَّنٍ من الفلسفاتِ اليونانية القديمة، والتطلُّعاتِ الرومانية الاستعمارية، وروحِ التحرُّر من أيِّ موروثٍ ديني، وهي إلى جانبِ هذا المزيج امتلكت قدراتٍ عاليةً بفضل الموارد الهائلة التي أتت بها حركةُ الاستعمار الحديث، فزادت من غلوائها وتمرُّدها، وفي نفس الوقت زرعت بذور فنائها في أعماقها، ولعل من ذلك:

* **الخواء الروحي والأخلاقي**، وبعبارة أخرى: الانفصام بين الواقع والضمير، فالقيم الروحية التي تحملها الديانة النصرانية على الرغم من تحريفها لا يكاد يوجد لها مكان في الحراك الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ولا يعرفها الإنسان الغربي إلا في أحوال قليلة إذا أراد أن يقيم شعائر احتفالية في مواسم الأعياد، أو لدى عقد الزواج، أو طقوسًا جنائزية يقوم بها رجال الدين، وأفضل تعبير عن هذا الخواء ما قاله محمد أسد: «الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدَّةٍ وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله، ولا تَعرف له فائدة، ولا تَشعر بحاجةٍ إليه»[2]. وأمة لا رابط بين ثقافتها وحضارتها ليست جديرة برعاية قيم العدالة والحرية وحقوق الإنسان.
* **العدمية والتفكيك:** وهي من نتائج الانفصام بين الحضارة والأخلاق، وتعني فصل العناصر الأساسية في التكوين والبناء عن بعضها البعض، فبعد فَقد الإيمان بالخالق يَفقدُ الإنسان مركزيته في الكون، ويكون مادة من جملة المواد التي لا يفضل بينها أي شيء، وتُصبح الأمور كلُّها نسبية؛ فلا اعتراف بأي مُطلق، وهو ما يقود إلى العدمية، بل تصل بالإنسان إلى اللاعقلانية المادية. وتحوله إلى مادة محضة، والنتيجة: نزع القداسة عن العالم والإنسان والكون، وتحرير العالم من سرّه وسحره وجماله، وتجريد الإنسان من خصائصه، وإنكار الكليات، واستخدام العنف للتغيير، والإيمان المُطلق بالقوة، والبراغماتية المفرطة، والقدرة الهائلة على التحرك بلا قواعد أو مُطلقات.
* **امتهان الإنسان واحتقاره:** فبالرغم من الشعارات البراقة لحقوق الإنسان وحمايته إلا أنّ الإنسان اعتُبر في هذه الحضارة مجرّد تطور تلقائي لكائنات سابقة، تطوّرت هي الأخرى من كائنات قبلها، حتى يصل بنا التتبُّع إلى جزيئاتٍ كيميائيةٍ تصادمت واجتمعت بالمصادفة أو الانتخاب العشوائي،

(١) تنظر مقالة: نقد الحضارة الغربية بين مالك والمسيري، مصطفى عاشور، إسلام أون لاين.
(٢) نقله أبو الحسن الندوي في كتابه: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص (١٦٢).

وبالتالي: فالإنسان هو نتيجة متقدمة لجملة من التفاعلات الكيميائية والتغيرات الفيزيائية والتطورات الحيوية، وليس صاحب رسالةٍ سامية، ولا موكلاً بالاستخلاف في الأرض، بل هو كائن من جملة كائنات الأرض، لا يهمه إلا إشباع غرائزه وامتلاك المزيد من القوة في سبيل السيطرة والغلبة.

وتبعًا لهذا التصوّر: فإنَّ الشعارات تختلف كثيرًا عن التطبيق، فعلى الرغم من الشعارات البرّاقة الداعية لحفظ كرامة الإنسان وحقوقه، نجد أن من يرفع هذه الشعارات يساهم في إبادة شعوبٍ بأكملها أو التسبُّب في بؤسها وشقائها لمصالحَ معيّنة، وعلى الرغم من شعارات الحرّية والديمقراطية نجد أنَّ من يرفع هذه الشعارات ويُطبِّقها يساهم في بقاء شعوبٍ بأكملها تحت حكم الدكتاتوريات الدموية، بل ويقوّض حركات التحرُّر التي تروم الحرية والكرامة! كما يحصل في سوريا الآن، وحصل قبلها في العديد من الدول العربية والأفريقية واللاتينية، ولعلّ من أسباب هذه الازدواجية: الإيمان بفكرة العرق الذهبي، أو نظريات تفوق الإنسان الأبيض على بقية شعوب العالم؛ والتي لا يُمانع أصحابها أن يفنى نصف البشر ليصفوَ للنصف الآخر العيشُ الهنيء، وهي الذهنية التي انبثق عنها الاستعمار وويلاته التي امتصَّت خيرات الشعوب وسخّرتها لصالحها[1].

كما أنّ من تطبيقاتها كذلك: أنّ قيمة الإنسان بحسب ما يملك أو بحسب عمله، ولذا فإنَّ من فقد عملَه أو مالَه يصبح عديم القيمة مشرّدًا لا حقوق له، بل لربما كانت لبعض الحيوانات حقوقٌ أكثر منه!

> **الإنسان في الحضارة الغربية المعاصرة مجرّد تطوُّر جيني لكائنات سابقة، وبالتالي: فلا يُنظر إليه على أنه صاحب رسالةٍ سامية، ولا موكَّلاً بالاستخلاف في الأرض، بل كائنٌ من جملة كائنات الأرض، لا يُهمُّه إلا إشباع غرائزه وامتلاكُ المزيد من القوة في سبيل السيطرة والغلبة**

صنم الحرية الغربية:

وجد الغربيون عند تحررهم من قيود الاستبداد الملكي الكنسي أنّهم على أعتاب حقبةٍ جديدةٍ من عمر البشرية ليس فيها مكانٌ للقيود والمحرّمات؛ فأطلقوا العِنان لأفكارهم ورغباتهم دون حدٍّ أو قيد، وأباحوا لأنفسهم كلّ ما يحقّق النفعَ المادي، وتخلّصوا من الإيمان بالإله ومن جميع تبعاتِ هذا الإيمان؛ لأنّه يقيّد حرّيتهم المنفلتة.

لكنّهم سرعان ما وجدوا أنفسهم مضطرّين لتثبيت هذا التغيُّر الذي أحدثوه، ليرجعوا إليه في كلّ حين، صانعين لأنفسهم نقطةً مرجعيةً يُحاكمون إليها أيّ محاولة لإعادة الاعتبار للدين ومرجعيته الأخلاقية؛ فظهرت النظريات والأطروحات الفلسفية بأنواعها الاجتماعية والسياسة والاقتصادية ونحوها لضبط هذا الحراك، والتي اتّفقت في مجملها على تمجيد الإنسان –لا الإله– وجعله مركز الكون، وظهرت القوانين التي تبالغ في نزع القيود، ووُضعت المواثيق التي تحمي الحريّات التي تسير في هذا الاتجاه.

ولإكمال الصورة: أنشئت ساحات وميادين الحرّية، وأقيمت النصب التذكارية وشيّدت التماثيل، وشيئًا فشيئًا صارت الحريةُ نفسُها (ضمن مفاهيمها الغربية الجديدة) دينًا يُتبع وصنمًا يُعبد.

انقلاب الغرب على «مبادئه»:

ظهر التناقض في تصرفات الدول الغربية منذ البداية، لعل أشهرها استمرارُ حركة الاستعمار[2]، وما رافقها من محاولات فرض هويته على الشعوب المحتلة رغمًا عن إرادتهم، ثم الكيل بمكيالين في العديد من القضايا كالمسألة الفلسطينية، والنازية ونحوها، وكان هذا التناقض أكثر ما يظهر في الجوانب السياسية والدولية.

وبقيت السمة العامة للمجتمعات الغربية التمسُّك بتلك القيم داخل مجتمعاتهم، وحافظت عليها الدول عمومًا بقوة القانون وتأثير الثقافة والإعلام ما لم تمسَّ أمنها أو مصالحها، خاصةً خارج حدودها؛ فلم يأبه الإنسان الغربي حاكمًا

(١) «الرأسمالية –كما يقول الفيلسوف جارودي- عاشت على خيرات ثلاث قارّات احتلتها واستغلّتها فنهبت ثرواتها لقاء ثمن بخس –إن كان هناك ثمن- ولا زالت تستغلُّ هذه الثروات لصالحها». المدخل إلى الاقتصاد الإسلامي، للدكتور علي القره داغي، (١/ ٧٣).

(٢) لم يتوقّف استعمار الدول والشعوب ونهبُ خيراتها قبل الثورة الفرنسية وبعدَها، وحتى بعدَ تأسيس منظمة الأمم المتحدة، اللهم إلا في مسائل يسيرة مثل تجارة الرق، وما عدا ذلك فالاستعمار قائمٌ حتى اليوم بصيغٍ وأشكالٍ أكثر تطورًا.

أو محكومًا بدعم الديكتاتوريات والحكومات المستبدة، ومصادرة حقوق الشعوب الأخرى في حقوقها إلا بقدر حصولهم على خيرات وامتيازات هذه البلاد؛ فقد بقيت تسيطر عليه «أخلاقيات» الاستعمار مع العالم الخارجي، مما جعله طيلة تاريخه مزدوج المعايير، ولا جديد في ذلك.

أما على المستوى الداخلي: ففي الوقت الذي كانت الحرية فيه تضمن حقوقَ فئات مهضومة ومظلومة من المجتمع، كانت الحرية نفسُها تُفرز أصنافًا من الانحرافات الكفيلة بتدمير البنية الاجتماعية لدول الغرب من داخلها.

وبدأت المنظمات الدولية التي تتحرَّك في فلك تلك الدول بمحاولة فرض ثقافتها الاجتماعية والسلوكية والأسرية على سائر دول العالم من خلال الاتفاقيات الدولية المتعددة، التي تهدف إلى تغيير البنية الثقافية والأخلاقية، منطلقةً من العقلية الغربية وأهدافها متدثِّرةً تحت شعار حماية حقوق الإنسان.

ومع الحراك المستمر في الدول الغربية في هذا الاتجاه تغيَّرت الكثير من الأفكار والمعتقدات، وبدأت ملامح الانهيار الأخلاقي والسلوكي تزداد بقوة وتسارع، وازداد البعد عن الفطرة، وبسبب عدم وجود أرضية قيمية للحريات أصبح ما كان منكرًا بالأمس مستساغًا اليوم، وشمل ذلك الأفكار والمعتقدات، والعلاقات بين الجنسين، وملابس النساء، حتى أصبح العري مُعبِّرًا عن أرقى صور الحرية، ولم يزل الحدُّ الأدنى للعمر الذي يُسمح فيه بممارسة الرذيلة ينزل حتى وصل إلى أعمار «الطفولة» حسب ذات القوانين «الضامنة للحرية»، وشاع التبشير بالشذوذ والدعوة إليه.

> **يلحظ الراصد للتغيرات الاجتماعية في الغرب أنَّها انتقلت من الشعور بغرابة الأفكار المنحرفة التي يراد تطبيعها بدعوى الحرية، ثم إلى الدعوة إليها والتبشير بها وعدم الاكتفاء باعتناقها، ثم تحوّل الأمر إلى محاربة مَن يُعارضها تحت شعار محاربة التمييز والكراهية، ثم منع ومعاقبة كل من يعارضها!**

فكان ذلك إعلانًا لانقلابه على الأسس التي قام عليها حتى على المستوى النظري، وحتى في مجتمعاته.

توحُّش «المبادئ الغربية»:

تطوّر الأمر تحت وطأة الشعور بغرابة هذه الأفكار والرغبة في «تطبيع» الناس عليها، مع الإلحاح الحداثي ومنتجاته الفكرية إلى عدم الاكتفاء باعتناق هذه الأفكار، بل والدعوة إليها والتبشير بها، ومحاولة نشرها في المجتمعات، ثم تحوّل الأمر إلى محاربة كلّ مَن يُعارضها تحت شعار محاربة التمييز والكراهية، ثم منع ومعاقبة كل من يعارضها!

بذلك تحولت هذه «الحرية» إلى استبداد أصحاب القرار تجاه كل من يخالفهم ويعترض عليهم، وشمل ذلك مناهجَ التعليم، ووسائلَ الإعلام، والقوانين، وسائرَ شؤون الدولة، وأصبحت هذه الدعوات مستبدَّةً متسلّطةً على رقاب الناس وتتدخَّل في أخصِّ خُصوصياتهم وحياتهم الشخصية والأسرية، وغابت تحت وطأتها شعارات الحرية والديمقراطية والرأي الآخر وتقرير المصير، ولم يعد هناك إلا طرفٌ واحدٌ مُستبِدٌّ يَفرض رأيه ويُصادر حرّية الآخرين، وهذه المرّة لم يكن الاستبداد ومُصادرة الحريات موجّهًا نحو الخارج ودول العالم فحسب، بل بدأت الهجمة بمجتمعاتهم من الداخل، حتى صارت الأصوات تعلو بالشكوى من ذلك، في انتهاكٍ صارخ لكلِّ ما قامت عليه أُسُس الحضارة الغربية وما ترفعُه من شعارات، وما تنتهجه من مبادئ، حتى إنّ معايير ثقافية وأخلاقية وسلوكية جديدة توضع وتقرُّ اليوم.

وأصبحت قيم الحداثة والليبرالية والديمقراطية وحقُّ هؤلاء في اعتناق ما يشاؤون من أفكارٍ ما هي إلا أدواتٌ بأيديهم لوأد هذه القيم ومصادرتها في غيرهم والتسلُّط عليها.

فأصبحت السلوكيات والقوانين المصاحبة لهذه الموجة تنسف «الحرية» التي يتغنى بها الغرب حتى في داخله. فلم يعد المرء حرًا في التعبير عن رفضه للشذوذ والنسوية، وليس له الخيار في أن يجنِّب أبناءَه ما لا يرتضيه من التربية عليها في المدارس ومناهج التعليم، ولم يعُد من حقِّه أن يمنع ابنَه القاصر من قرارات يراها ضارّةً به كالتحوُّل من جنسٍ إلى آخر، بل إنه بذلك يعرِّض نفسه

للعقوبة القانونية والسجن ورفع ولايته عن أبنائه. فماذا بقي من «الحرية»!

> **نادت الحضارة الغربية بتحرير العقل من الطغيان والاستبداد، وعظّمت العلم، ورفعت من مكانة العقل، لكن قيمها ومبادئها انطلقت دون ضوابطَ معرفيةٍ أو عقلية، خاليةً من المعايير الأخلاقية والقيمية، فباتت بلا قائدٍ ولا موجِّه، ومثل هذه الشهوات والرغبات ستعبث بهذه الحضارة، ثم تكون سببًا في فنائها وزوالها**

المستقبل:

التناقضات بين الشعارات التي نادى بها الغرب وواقعه باتت كثيرةً جدًا، في جميع مجالات الحياة الفكرية، والعلمية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وبالمحصلة: فما يعيشه الغربُ اليوم من الانهيار في القيم والانقلاب على المبادئ التي عاش مناديًا بها؛ هو النتيجةُ الحتمية والمحطة المتوقعة للفكر الذي سار عليه ونادى به؛ فما الواقع إلا حصاد ذاك الغراس، والسيف الذي استلوه على الحكم الكنسي البابوي هو ذات السيف المسلَّط على رقابهم الآن.

ومع أنّ هذه الحضارة نادت ابتداءً بتحرير العقل من الطغيان والاستبداد، وعظَّمت العلم، ورفعت من مكانة العقل، لكن هذه المبادئ انطلقت دون وجود ضوابطَ معرفيةٍ ولا عقلية، ولا معاييرَ أخلاقيةٍ أو قيمية، فباتت بلا قائدٍ ولا موجِّه، والمتوقَّع أنَّ المصالح الضيقة والرغبات والشهوات المحضة ستعبثُ به ابتداءً بانحراف العلم عن مساره الصحيح غايةً وأهدافًا ووسائل، ثم الإيغال في الشهوات والملذات بعيدًا عن أي ضابط أو رادع[1].

ومع أنَّ الغرب تغنى ردحًا من الزمن بأنَّه لا يقبل أمرًا إلا من خلال البحث العلمي والتجربة، وظنَّ كثير من الناس أنَّ الغرب يُقدِّس هذا المبدأ فعلًا، فإذا هو الآن يقدِّم نظرياتٍ متهافتةً في الجندر والمساواة المطلقة بين الذكر والأنثى لا تستند إلى أيِّ أساسٍ علمي، بل تُصادم بحوثَه الرصينة في هذا المجال، فيحاربُها ويصادرُها عن النشر والتسويق، ويشنُّ الحملات على العلماء الذين قاموا بها لتشويههم وإسقاطهم.

لقد سقطت أوراق التوت عن عورات «الحضارة الغربية» بصورة مريعة وفجة، ما ظن الناس أن تنكشف بهذه الفجاجة والوقاحة، «وإنَّ حقًا على الله ما رفع شيئًا إلا وضعه».

ومما يتعجَّب منه أصحاب الفِطَر السليمة والأذواق الصحيحة: أن تتقبَّل عقول الغربيين حرياتٍ تقود إلى الهبوط والتدنّي في الملذّات والشهوات، إلى درجةٍ بهيميةٍ صِرفة، بل إلى ما هو أسوأ من ذلك مما يعفُّ القلم عن كتابته!

وكما كانت شعارات العدالة وتوزيع الثروة وبالاً على الشيوعية وسببًا في تدميرها بعد عقود من استعلائها وعتوِّها، ستكون شعارات الدول الغربية كذلك، وهكذا كان حالُ الأمم الغابرة، يجمعُها الانحراف عن شرع الله، واتخاذُ مرجعياتٍ بشريةٍ غيرِ إلهية؛ فالجاهلية هي الجاهلية، كان الرجل في الجاهلية يصنع صنمًا من تمر، فإذا جاع أكله، أضحت الحضارات الغربية تأكل نفسها بنفسها بما تحمله من أفكار هدامة.

لقد آن الأوانُ لطائفةٍ من أبناء جلدتنا ممن يَزهَد بما بين يديه من علمٍ وفكر، ويولِّي وجهَهُ تلقاء الشرق أو الغرب كلما لاحت بوارق منجزاتٍ دنيوية ينبهر بها، لا يُدرك كُنهَها وحقيقتها؛ آن لهم أن يكُفُّوا عن محاولة إلباس هذه الفلسفات لَبوس الإسلام، وأن يُدركوا عظمة دينهم وتراثهم، ويفقهوا حقيقته.

(١) ولعل مِن أكثر مَن خبر حقيقة الفكر الغربي ومآلاته وتنبأ بكثير مما هو واقع اليوم د. عبد الوهاب المسيري في دراساته التحليلية، ولعل أشهر تنبؤاته في انتشار الشذوذ الجنسي وازدياده، معللاً ذلك بأنّه إذا كان التوجّه في الحضارة الغربية نحو اللذة، فإن الجنس مع الأنثى خطر، لأن ذلك سيؤدي لعلاقة مع الآخر والتي تفرض نمطًا من الأخذ والعطاء ووجود أطفال أحيانًا بما يمثله من بُعد اجتماعي، كذلك تعني نوعًا من الثبات في العلاقات بخلاف العلاقات العابرة. فإذا كان الأمر هو التوجه نحو اللذة؛ ستكون النتيجة الحتمية هي الشذوذ الجنسي؛ فالشذوذ الجنسي نتيجة حتمية للمادية الإيديولوجية!

الأمة أولاً .. قراءة في مفهوم الأمة والدولة عند هوفمان

د. محمد بن عبد الله السلومي (*)

الأمة قوة كبيرة لأي تجمع بشري، لكن بناء الأمة له أسس وملامح ومقومات لا يمكن تحقيقها بسهولة، ونظرًا لتحقق مقومات الأمة في دين الإسلام فقد عمل الأعداء على محاولة تفتيتها وتجزيئها إلى دويلات وقوميات وعصبيات متناحرة. تتجول هذه المقالة بين هذه المعاني في كتابات المفكر الألماني المسلم مراد هوفمان

مدخل:

تتدافع معظم الأمم بتنوع هوياتها القومية والدينية على بناء ذاتها وقوتها وسيادتها من خلال تجانسها واندماجها تحت الأمة الواحدة؛ بدوافع البحث عن قوة لها أكبر واتساع ديموغرافي أكثر من المفاهيم الوطنية الجغرافية الضيقة، فمثلاً العمل بمفهوم الأمة الأمريكية (American Nation) جعلها تتجاوز الحروب الداخلية بين ولاياتها الخمسين، واختلاف أعراقها وأديانها بعد اتحادها باسم «الولايات المتحدة الأمريكية» لتواجه بهذه الوحدة الأممية ومبادئها الأمم الأخرى وحضاراتها وثقافاتها وسياساتها واقتصادها[1].

وكذا عملت دول أوروبا باسم الأمة الأوروبية الواحدة التي تجاوزت -مؤخرًا بعد الحرب الأوروبية العالمية الثانية- بمفهوم الأمة تنوع اللغات وتحدِّياتها وتعدُّد المذاهب الدينية النصرانية وتناحُرَها وحروبَها، كما أنَّ أوروبا تتباهى باتِّحادها لتجعل منه نموذجًا عالميًا للمواطنة العابرة للحدود القومية[2]، بل إنَّ دول الغرب عامة تُبشر بالعولمة وتعمل على إحلالها عالميًا بجميع المجالات بما فيها

(*) باحث في الدراسات التاريخية ودراسات العمل الخيري والقطاع الثالث.

(١) بالرغم من استنتاج «جيمس بيرسون» الباحث بمعهد منهاتن في مقال له عن مفهوم الأمة الأمريكية: أن الولايات المتحدة الأمريكية وصلت إلى نقطة لم يعد بسببها ممكنًا وصفها بالأمة الأمريكية لتضارب المبادئ التي أُسست عليها. [مجلة المعيار الجديد The New Criterion في ٢٠/ ١/ ٢٠٢٠م]

(٢) كما هو مقال: (مواطنة عابرة للحدود القومية)، أو المقال الآخر بمفرداته المتعددة: (المواطنة عبر الأوطان)، ومواطنة متعددة الجنسيات، وأفاق المواطنة فوق الوطنية [كلاوس ليجوي Claus Leggewie، مجلة يوروزين الأوروبية (eurozine)، بتاريخ ١٩ فبراير ٢٠١٣م: https://www.eurozine.com/transnational-citizenship]

الجانب الثقافي، وكذا فعلت دولٌ أخرى، حيث الأمة الصينية والروسية والهندية والتركية بأعراقها المتعدِّدة وغيرها من أمم الأرض لتكون أمة واحدة، ثم ربما سعت لتكون دولة واحدة.

وأكثر من هذا أنَّ فرنسا ابتدعت الأمة «الفرانكوفونية» لتصنع بها اندماج شعوب وأمم كانت تحتلها! وكذلك فعلت بريطانيا بما يُسمى «دول الكومنولث» البريطاني كأمة واحدة تربطها اللغة الإنجليزية وحقبة الاحتلال البريطاني البغيض!

وكل هذا من المحاولات لصناعة الأمم القوية التي تقوم على مفاهيم اللغة أو القومية أو الدين والثقافة، لكن مفهوم (الأمة في الإسلام) يختلف من حيث مقوِّماته اختلافًا كبيرًا عن الأمم الأخرى؛ حيث المفهوم في الدين الإسلامي يقوم على العقيدة الواحدة التي تصنع الأُخوَّة والتسامح، والمساواة والعدالة بعدم التمييز الطبقي، وذلك بالرغم من اختلاف الأعراق واللغات بين المسلمين في أنحاء الأرض، ولهذا فإن مفهوم الأمة في الدين الإسلامي يأخذ بعدًا واسعًا وقويًا بجانبه العقدي (الأيديولوجي)، فهو دينٌ لا يختزل الوحدة والاتحاد بأفق ضيق في بُعدٍ واحد من أبعاد ومقومات الأممية المُعاصِرة كالبعد السياسي أو الاقتصادي أو العِرقي على سبيل المثال.

> **مفهوم (الأمة في الإسلام) يختلف من حيث مقوِّماته اختلافًا كبيرًا عن الأمم الأخرى؛ حيث يقوم على العقيدة الواحدة التي تصنع الأُخوَّة والتسامح، والمساواة والعدالة بعدم التمييز الطبقي، وذلك بالرغم من اختلاف الأعراق واللغات بين المسلمين في أنحاء الأرض**

وبعيدًا عن جدلية المصطلح وتكويناته الفلسفية والفكرية لدى الأمم الأخرى فإن المفهوم يختلف في الإسلام، وبالتالي يختلف لدى علماء الإسلام ومفكريه من خلال أقوالهم وتفسيراتهم لمفهوم الأمة المسلمة ووسائل تحقيقه.

فالأمة في الإسلام محورها الأساس هو: الدين والجماعة البشرية التي تتمحور حول دين وعقيدة، وتسعى وتعمل على تحويل هذا الدين أو تلك العقيدة إلى وقائع وحقائق، هذه الجماعة البشرية يطلق عليها مصطلح (الأمة)؛ حيث الأمة هي التي تُفرز الدولة، والدين الإسلامي بتشريعاته وقِيَمه هو الأداة التي تُحقق بها الأمة وجودها الفعلي، والأمة بمفاهيمها وقِيَمها هي التي تقود إلى الوحدة، والوحدة تؤدي إلى الدولة وقُوَّتها، والأمة والدولة تتكاملان في الأصل ولا تتناقضان في تشريعات الإسلام وقِيَمه، ويوم أن تتعارض أو تتناقض سياسات الدول الوطنية الحديثة في العالم الإسلامي مع مشروعات الأمة ومؤسساتها الأهلية على سبيل المثال فإن الأمة المسلمة تكون في خطر، بل حتى الدولة الحديثة تكون في ضعف وضمور أو زوال لفقدان هويتها أو ضَعْفِها[1].

فما هو مفهوم (الأمة المسلمة) لدى المفكر الأوروبي الألماني (١٩٣١-٢٠٢٠م) المخضرم دينيًا؟ الذي عاش الكاثوليكية خمسين عامًا، ثم عاش الإسلام أربعين عامًا تقريبًا، وقد حسن إسلامه، وكتب بعمق عن الحضارتين الغربية والإسلامية، وعاش الحياة السياسية والدبلوماسية من خلال عمله الوظيفي في الخارجية الألمانية! ومن خلال عمله في أمن المعلومات في حلف الناتو، وهو مع هذا وذاك القانوني المتخرج من جامعة هارفارد.

والجواب حول هذا التساؤل يكمن في كُتب هوفمان نفسها، فمن خلال قراءتي البحثية في كُتبه وإعداد كتاب عنه وعن أبرز رؤاه بعنوان (المفكر الألماني مراد «ويلفرد» هوفمان - رؤيته في احتضار الغرب! وصعود الإسلام!) وجدتُ أنه يطرح مفهوم الأمة المسلمة على أساس أنها ميزة في الإسلام وأولوية وواجب على المسلمين، وذلك بالعمل على تحقيقها بالوعي وبالتربية والتعليم، لا سيما في العالم المعاصر؛ حيث التحديات الكبيرة على الإسلام والمسلمين، وأهمية مواجهتها بالوسائل المشروعة والمتاحة، استجابةً لدينهم وحقًا مشروعًا لهم كحال الأمم الأخرى في ممارسة الأممية ولوازمها كما يقول هوفمان عن هذا ويُكرِّره.

هوفمان والفردوس الاجتماعي!:

عن مفهوم الأمة وجدتُ أن كثيرًا من كتاباته وكُتبه تتضمن بصورةٍ مباشرة وغير مباشرة الحديث عن موضوع الأمة وأنه ميزة وقوة في الإسلام يستحق التدوين والإشادة، بل إن مفهوم الدولة الواحدة للمسلمين أو الخلافة يجب ألا يكون هدفًا رئيسًا

(١) ينظر عن هذا بصورةٍ أوسع كتاب: مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، للمؤلف ناصيف نصار، ص (٢٢).

للمسلمين حسب رؤيته، فهو يرى أن هذا خلاف الأولويات، وقد عاش هوفمان في عصر كان يرى فيه أن المسلمين بحاجة لما هو أهم وأكبر من الخلافة؛ حيث العمل على تعزيز مفاهيم الأمة الواحدة بروابط العقيدة وقيم الدين المُوحِّدة أولوية وواجب، لما تُقدمه مفاهيم الأمة المسلمة من قِيَم عجزت الحضارات الأخرى عن تقديمه حتى العصر الحاضر.

> **«لا بد أن يرى الغربيون الذين يتمتعون بحس المسؤولية ما يشبه الفردوس الاجتماعي، عندما يدركون أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حلَّ مشكلات العنصرية والتعددية الدينية، بإعطائه الأهمية للتقوى وليس للون البشرة، وبقبوله لأيٍّ كان عضوًا في هذه الأمة. وبالتسامح التام مع الديانات الأخرى»**
> مراد هوفمان

وعن هذا كَتَبَ هوفمان، ومما قال: «من هذا المنطلق لا بد أن يرى الغربيون الذين يتمتعون بحس المسؤولية ما يشبه الفردوس الاجتماعي، عندما يدركون أن الإسلام –من الناحية النظرية في الحد الأدنى وفي واقع الممارسة في الغالب– هو الدين الوحيد الذي حلَّ مشكلات العنصرية والتعددية الدينية، بإعطائه الأهمية للتقوى وليس للون البشرة، وبقبوله لأيٍّ كان عضوًا في هذه الأمة. وبالتسامح التام مع الديانات الأخرى. فعندما اكتشف مالكوم إكس Malcolm X الطبيعة متعددة الأعراق للأمة الإسلامية كان ذلك بمثابة وحي بالنسبة إليه. دعونا نحقق أقصى الفائدة من هذه الفضيلة بأن نحياها، وبأن نجعل اللون والطبقة الاجتماعية والمذهب واللغة وكل ما شابه ذلك من أشكال التمييز أشياء لا مكان لها بيننا، لقد اختار ملايين الأفارقة الأمريكيين الإسلام ليس لمجرد أن بلالاً ﷺ أسود البشرة، فَلِمَ لا يَحْذُو ملايين آخرون حذوهم لاعتبارات مشابهة؟»[1].

والحقيقة أن وحدة الأفكار والقيم والأخلاق في الإسلام، وقبل هذا توحيد العقيدة، ثم تفوُّقها ونجاحها في عالم المسلمين اليوم يُعدُّ من الانتصار لدينهم، ولا سيما في نهايات القرن المنصرم وبداية القرن الواحد والعشرين الميلادي، وهو ما يُعدُّ مقدمات مبكرة لوحدة الأمة، وبالتالي يكون انتصار الأتباع من اللوازم والنتائج، فالأفكار والعقيدة الواحدة تُعدُّ العامل الموحِّد الأساسي للشعوب والأعراق والدول بصورةٍ عامة، فكيف بها مع الإسلام والمسلمين في توحيد أمتهم! فالوحدة السياسية أو الاقتصادية للأمم الأخرى في غالبها إنما تقوم على المصالح دون المبادئ، وفي الغالب أن هذا النوع من وحدة الأمم لا يدوم كما هو حال معظم دول الغرب، واستمرار تلك الوحدة فترةً من الزمن في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م راجعٌ إلى توحدها واستخدام قوتها –في الغالب– في صناعة النزاعات والحروب ضد الآخرين كعامل بقاء موحِّد للداخل مثل واقع أمريكا وأوروبا باختلاف وتفاوت في بعض السياسات، بالرغم من أن اتحاد بعض أو معظم دول الغرب لا يزال الحكم على استمراره ونجاحه مبكرًا. وهذا يعني أن المسلمين بمفهوم «الأمة الواحدة» القائم على العقيدة الواحدة والكتاب الواحد (القرآن) يمتلكون عامل وحدة أقوى حول مشروع نهضتهم وسيادتهم المأمولة عند كل مسلم، بل إن منافسة الإسلام في مفهوم القوة والوحدة النابعة عن عقيدتهم هي قضية المسلمين الرابحة، حتى وإن كانوا لا يمتلكون –بحالتهم الراهنة– أهم الأدوات والوسائل القوية ذات الأثر والتأثير والتمكين!

ويُوضِّح هوفمان عن هذه القوة في مفهوم الأمة، بأنَّها حقيقةٌ مرئيةٌ ملموسةٌ بين المسلمين في الغرب، كما يُنبِّه إلى حاجة المسلمين وغير المسلمين إلى الدفء والرحمة والحنان في عصرهم الحاضر، وذلك بقوله: «فالإسلام يأتي بعائلة هي «الأمة». والأخوة في الإسلام حقيقة ملموسة تتفوق على فكرة «حب الجار» السائدة بين النصارى الغربيين. فإذا كان البرود العاطفي في المجتمعات الغربية (وليس أمريكا الخضراء الموعودة) قد أصبح حقيقة واقعة، وأظنه كذلك، فإن الأمة الإسلامية في توفيرها للدفء والحنان والتعاطف إنما تُلبي حاجة أساسية للشباب الغربي المعاصر»[2]. وهو بهذا يؤكد الفروقات الكبيرة في مفهوم الأمة بين الغرب والإسلام، لا سيما وقد عاش نمط الحياة الغربية وما فيها من برود عاطفي، كما عاش حياة الإسلام وما فيها من التعاون والتعاطف والتراحم والعلاقات فيما بين أمة الإسلام الواحدة.

(١) نظام الحكم الإسلامي في العصر الحديث، ص (١٠٨-١٠٩).
(٢) المرجع السابق، ص (١٠٣).

> «الأخوة في الإسلام حقيقة ملموسة تتفوق على فكرة «حب الجار» السائدة بين النصارى الغربيين. فإذا كان البرود العاطفي في المجتمعات الغربية قد أصبح حقيقةً واقعة، فإنَّ الأمة الإسلامية في توفيرها للدفء والحنان والتعاطف إنما تُلبي حاجةً أساسيةً للشباب الغربي المعاصر»
>
> مراد هوفمان

وهوفمان الذي يطرح هذه الرؤية عن مفهوم الأمة في كثير من كُتبه كَتَبَ بوضوح عن مستقبل انتصار الإسلام بالمجتمع وبمفهوم الأمة المسلمة دون شرط الدولة أو الخلافة! مع نقده لمفهوم الدولة الوطنية الحديثة، ومما قال: «عندما نشأ الإسلام لم تكن هناك أية ديمقراطيات في هذا العالم، كما أنه لم تظهر أي منها لمدة ألف سنة تالية. فالقرآن – وكما كل الكتب المقدسة- يتعامل مع شؤون العائلة والمجتمع –الأمة الإسلامية- وليس مع تنظيم دولة، بغض النظر عن كونها مَلَكِيَّةً أو جُمهورية. إن الإسلام لا يمكن أن ينجح دون مجتمع إسلامي تقوده الشريعة، ولكنه يُمكن أن يَنجح دون دولة. إن فكرة الدولة الوطنية ليست إسلامية على الصُّعد كافة»[١]. وهوفمان يقصد بهذا القول: أنَّ بناء الأمة أوْلى وأهم من بناء الدولة الواحدة للمسلمين، مع أنَّ الدولة في النهاية هي المُخرَج الطبيعي للأمة عبر التاريخ الإسلامي، وبهذا كان عمل النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ومن جاء بَعدَهم، وواضحٌ أنَّ مقصود هوفمان بالدولة هنا (الخلافة) حينما قال: «يمكن أن ينجح الإسلام دون دولة». والمهمُّ في هذا هو التنبُّه لمحاولات الاختراق وتشويه العقيدة الموحِّدة للأمة عن طريق إحياء الشبهات أو الشيطنة لبعض الجماعات من جُهَّال الأمة المسلمة، لئلا يكون هذا مِعْول هدم بأصل مفهوم الاجتماع على العقيدة الواحدة والأمة الواحدة، ولعل هوفمان يرى أن المركز السياسي في الإسلام ليس شرطًا لحضور الإسلام في حياة المسلمين وتفوقهم به، وقد حدث هذا مرات عديدة في التاريخ دون خلافة.

وهوفمان المتفائل لمستقبل الإسلام والمسلمين بالغرب خاصة يقول: «إن أمة الإسلام بقوة دينها المذهل ستكون البديل المأمول في الغرب ذاته» بكلماتٍ واضحة وصريحة؛ حيث نجاح مفاهيم الأمة وقِيَمها لدى الجاليات المسلمة في الغرب وما صنعه مفهوم الأمة فيهم، بالرغم من الاختلاف العرقي واللغوي للمواطنين من الجاليات! قائلاً: «ومن النتائج المأمولة لهذه التطورات في الغرب هو اختفاء الجاليات المسلمة المختلفة عربيًا ولغويًا هناك في الغرب، أي ظهور أمة عالمية حقًا، ولا منقسمة بين علماء الشريعة ولا بين الانتماءات القبلية، ولا بين الحنين إلى الأوطان الأصلية. فإن حصل ذلك فإن الإسلام سوف يتضاعف تعاونيًا. ويمكن أن يُرى الإسلام عندئذ في الغرب بديلاً في عالم تختفي فيه المسيحية تدريجيًا»[٢]. وكأن هوفمان بهذا القول يرى أن الثقافة الغالبة في المجتمعات الغربية سوف تكون مستقبلاً للإسلام بسبب قِيَمه العالمية الأممية الجذَّابة والآخذة في الظهور فعليًا.

بل إن هوفمان يقارن بتفاضُل بين مميزات الوحدة على أساس الأمة، وبين الوحدة على أساس سياسي حيث الخلافة، كما يُوضِّح بتفاؤل عن مستقبل الإسلام بالغرب في القادم من السنين للسبب ذاته! قائلاً: «الوحدة، أم الخليفة، أم كلاهما؟ ربما يكون التنوع بين المسلمين نعمة، بيد أن وحدتهم –التي تُزوِّدهم بالقوة- تُعدُّ قيمة بحد ذاتها. لذلك يُؤَمَّل أن تتجاوز الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا التشرذم، ويرتبطوا جميعًا بالأمة بطريقة تُقدِّم المسلمين في أنحاء العالم كله كأُخوّة عالمية. والسؤال هنا هل يمكن تحقيق ذلك من دون مركز سياسي؟ وبعبارة أخرى من دون إحياء الخلافة التي أزالها مصطفى كمال في العام ١٩٢٤م!»[٣].

> «في عصر ابن تيمية في القرن الثالث عشر الميلادي كان على المسلمين أنْ يعلموا أنَّ الإسلام يستطيع العيش من دون خليفةٍ مشترك، ولكنَّه لا يستطيع العيش من دون الأمة؛ إذ من غير المحتمل أن يعترف المسلمون بمركز سياسي واحد، ولكنهم يعترفون بانتمائهم لأمة واحدة»
>
> مراد هوفمان

(١) في تطور الشريعة الإسلامية، ص (٥٥-٥٦).
(٢) مستقبل الإسلام في الغرب والشرق، ص (١٨٦-١٨٧).
(٣) مستقبل الإسلام في الغرب والشرق، ص (١٨٨-١٨٩).

وهوفمان يطرح فكرته أو رؤيته عن الأمة ومعها المقارنة بين الإسلام والمسيحية، وكذلك بالسؤال والاستدلال، لا سيما حينما استدل بالتاريخ زمن ابن تيمية -رحمه الله- الذي تجاوز بالمسلمين بعض الفتن والمحن حينما حدثت فتنة المغول والتتار مع عدم وجود خليفة لأمة الإسلام، لكن حضور معظم مفاهيم الأمة المسلمة المُوحِّدة كان عاملاً فاعلاً، فالانتصار يرتبط بالأمة وعلماء دينها أكثر من ارتباطه بالدولة أو الخلافة حسب قول هوفمان هذا، وفيه: «ليس هذا السؤال [عن المسلمين دون مركز سياسي] جديدًا؛ ففي عصر ابن تيمية في القرن الثالث عشر الميلادي كان على المسلمين أنْ يعلموا أنَّ الإسلام يستطيع العيش من دون خليفة مشترك، ولكنه لا يستطيع العيش من دون الأمة. ما زالت وجهة النظر الحصيفة هذه قائمة؛ إذ من غير المحتمل أن يعترف المسلمون بمركز سياسي واحد، ولكنهم يعترفون بانتمائهم لأمة واحدة. يَحْسِد كهنة الكاثوليك وقساوسة البروتستانت المسلمين على شعورهم بالانتماء إلى أمة واحدة؛ إذ إن الوصية المسيحية «أحبوا بعضكم بعضًا» يَتَّبِعها المسلمون أكثر من المسيحيين؛ وذلك لإحساسهم بالأخوة فيما بينهم. هذه هي إذن بعض أهم العوامل التي ربما تشكل مستقبل الإسلام في الشرق والغرب، فيما هو آت من السنين»[1].

أهمية الأمة وحقائق تاريخية:

إذا كان الدكتور مراد هوفمان قد اكتشف وهو الشخصية الأوروبية أهمية الأمة في الإسلام في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فإنَّه يعلم ويُدرك أنَّها الضمانة الحقيقية للقوة والسيادة الذاتية، بل إنها من وسائل قوة الردع للظلم والعدوان الذي ساد المعمورة كثيرًا في ظل النظام العالمي السائد والمُتسيد فيه، وهو الذي عاشه هوفمان بالفعل في حياته (١٩٣١-٢٠٢٠م) وكان عاملاً أو موظفًا له وزنه في مؤسسات الغرب وأدواته التي أفادته في معرفة الكثير من الحقائق.

وهوفمان الذي يُفِّرق جيدًا بين الأمة والدولة لا يُظَنُّ أنه يجهل عموم ما هو معلوم عن سيرة المصطفى ﷺ عندما عمل على ترسيخ مفهوم الأمة الواسع ثم كان الخروج من نطاق مكة الجغرافي، ونطاق قريش القبلي إلى الطائف، بل واستهدف مجتمعات وشعوبًا مختلفة اللغة والدين بناءً على أمر ربه، منها الحبشة، وكان كذلك يفعل مع حجاج أصقاع الأرض حيثما كانوا، وذلك حينما كان يقابلهم ويعرض عليهم دين الإسلام، فهل كل ذلك عند هوفمان هو بحث عن إقامة دولة أو خلافة؟ أم أنه استمرار لعمل دائم على بناء أمة واحدة بعقيدة واحدة لا تحدها الحدود الجغرافية؟ ويوم أن تنتصر العقيدة أو ينتصر مفهوم الأمة الواحدة ينتصر الأتباع تباعًا، كما حدث بالمدينة النبوية بعد الهجرة، وهذا ما يحتاج إلى دراسة تحليلية واسعة في أقواله المتناثرة في معظم كُتبه عن موضوع الأمة والدولة.

> **كان العهد المكي يقوم بأساسه على صناعة الأمة الواحدة بما فيها من عقيدة وتعاون وتراحم وتعاطف ومساواة وعدالة وتسامح بين الأجناس البشرية دون تمييز قبلي أو عنصري، وقد تُوِّجت هذه الأعمال النبوية بميلاد الأمة الواحدة، فانتصار الإسلام قبل انتصار المسلمين هو ما حصل تاريخيًا للرسول ﷺ في العهد المكي**

والتاريخ يقول: كان العهد المكي مرحلة أولى للحياة المحمدية يقوم بأساسه على صناعة الأمة الواحدة بما فيها من عقيدة وتعاون وتراحم وتعاطف ومساواة وعدالة وتسامح بين الأجناس البشرية دون تمييز قبلي أو عنصري، وقد تُوِّجت هذه الأعمال النبوية بميلاد الأمة الواحدة، فانتصار الإسلام قبل انتصار المسلمين هو ما حصل تاريخيًا لرسول الله محمد ﷺ في عهد النبوة المكي، وهو ما يتوافق مع السنن الربانية الكونية، بل إن مما يجب فهمه واستيعابه أن فوز المسلمين -لو حدث قبل انتصار عقيدتهم ودينهم وانتشار أفكاره وقِيَمه والعمل بها- يُعدُّ كارثة تقود إلى التشويه والهزيمة اللاحقة التي سوف تضر بالإسلام والمسلمين، والتلازم بين الأمرين (الأمة والدولة) بأسبقية الأمة على الدولة وبأولية الإيمان قبل النصر من الله واضح غاية الوضوح في القرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وكما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

(١) مستقبل الإسلام في الغرب والشرق، ص (١٨٩).

مقارنة بين تصور هوفمان والتصور الغربي للأمة

الأمة في تصور هوفمان	الأمة في التصور الغربي
نواته المجتمع المترابط	نواته الدولة المركزية القوية
ليس بحاجة لدولة بالضرورة ليكون موجوداً	لا بد من دولة ليكون موجوداً
ينتشر بانتشار التكاتف والتراحم المجتمعي	ينتشر بضم أقاليم سياسية جديدة

ومن الحقائق التاريخية أن محمدًا ﷺ لم يقفز –وحاشاه– إلى تأسيس دولة في مكة مع إمكانية ذلك في شخصيته القيادية؛ لأن ميلاد الأمة بتعاطفها وتراحمها وتعاونها بعقيدة واحدة مُوحِّدة هي الأساس الأول والمتين للرسالة، ثم إنَّ دخول التاريخ السياسي جاء مرحلةً ثانيةً ونتيجةً طبيعيةً للحياة بعد انتصار مفاهيم الأمة، ويُلحظ الفرق بين المرحلتين في سيرة المصطفى ﷺ.

ومن تجارب العصر الحاضر التي من الممكن الاستئناس بها، أن مفاهيم (الديمقراطية) وما يتعلق بها في الدولة الحديثة تتطلب تثقيفًا سياسيًا وتهيئة اجتماعية قبل المناداة والعمل بها، وكما هي هذه الأولويات بحق (الديمقراطية) فإنها ألزمُ –برأيي– أن تكون بحق اختيار المجتمعات المسلمة لدينها؛ حيث وجوب العمل بمفهوم الأمة قبل الدولة والدولة المركزية[1].

وعن الأمة: فالتاريخ يؤكد بحق ما قاله القرآن الكريم عن أمة الإسلام بخصائصها الخيرية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والمسلمون في معظم تاريخهم كان نجاحهم الكبير في تحقيق الأمة الواحدة، كما أرشد القرآن ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. وهذا الإيمان والعمل الصالح هما أبرز المؤهلات الرئيسة للتمكين والاستخلاف، وهذا مما يُعدُّ أكبر وأهم في اعتقاد كل مسلم يفهم دينه من الاهتمام والعمل على إيجاد الدولة الواحدة أو الخلافة الإسلامية الموحَّدة. علمًا أن هوفمان عاش فوز الإسلام وانتصاره، وألَّف عنه أكثر من كتاب، ومنها (الإسلام في الألفية الثالثة

(١) فعن الديمقراطية أكَّد أحد المفكرين والرموز المُعظِّمين للمشروع الديمقراطي، وذلك حسب التجربة الإسلامية الديمقراطية القصيرة في الحكم بتونس: «عندما أخذنا معظم السلطة أخذناها على قراءة خاطئة، على أساس أننا أخذنا الأغلبية، دون أن ننتبه لميزان النخبة الذي نحن ضُعفاء فيه. الذين انتخبوا الرئيس مرسي ٥١٪ فارغة من ميزان القوة، والذين عارضوه ٤٩٪ مليئة بالقوة الصلبة: المال، الإعلام، القضاء الشرطة، الجيش، الاقتصاد، الفن، أصحاب المصالح والنفوذ إلخ. جبهة الإنقاذ في الجزائر حصلت عام ١٩٩١م على ٨٠٪ من الأصوات العاطفية الناعمة، في حين كانت النخبة والقوة الخشنة مع الـ٢٠٪ والحصيلة ٢٥٠ ألف قتيل، ورجوع للخلف عشرات السنين، لا يمكن أن نحكم مجتمعًا رغم نخبته، إلا إذا مارسنا قدرًا عاليًا من العنف وهذا آثاره كارثية، نحن الإسلاميين فقراء من حيث القوة الصلبة، فقراء في النخب، لأننا لم نأخذ وقتنا، خرجنا من السجون وعدنا من المهاجر واختارتنا الناس بالعواطف، فكيف لنا أن نحكم بهذا الغثاء العاطفي؟! فالنخب هي التي في أيديها كل شيء» انتهى كلامه (التغلب على العاطفة الدينية: م.معتصم الحوراني، نقلاً عن المفكر راشد الغنوشي- طلبة نيوز للإعلام الحر).

ديانة في صعود) وكتاب (الإسلام كبديل) وغيرهما، ورأى بنفسه انتشار الإسلام وانتصاره القائم عالميًا بالرغم من غياب الاستراتيجيات السياسية لنصرته! بل إن كل التحديات والخطط الاستراتيجية مناوئةٌ له، وهذا الفوز للإسلام بمفاهيم الأمة الواحدة مما يمنح لدول الإسلام الوطنية الحديثة التحرر من هيمنة الأجنبي وسيادته، وتلك مرحلة أولى للنهوض والبناء الحضاري والمنافسة الدولية.

علمًا بأن هذه الرؤية للمفكر هوفمان وهذا التعليق عليها لا يعني التقليل من شأن وجود الدولة الواحدة أو الإمام الواحد حينما تتوفر المعطيات والشروط، كما هي تأصيلات كثيرٍ من علماء الإسلام وفقهائه عن الإمامة والخلافة عبر التاريخ. وحول فعل ابن تيمية الذي قام بوظائف الإمامة للمسلمين في ذلك الزمن، فكما يمكن الاستدلال به على أهمية الأمة حيث استشهاد هوفمان، فيمكن كذلك الاستدلال به على أهمية الدولة حينما مارس ابن تيمية سلطاتها، وقد أَلَّف عن هذه الأهمية إمام الحرمين أبو المعالي الجُويني (ت ٤٧٨هـ) – رحمه الله- كتاب (غياث الأمم في التِيَاث الظُّلَم)، فالإمامة والخلافة من مقاصد الشريعة وثمرات الأمة، والمهم في كل هذا أن نشدان الدولة الواحدة للإسلام (الخلافة) لا يكون أهميته مُقدمةٌ على الأمة ومفاهيمها، ولعل هذا هو ما يقصده هوفمان؛ حيث يرى أولوية الأمة على الدولة؛ لأن الأمة هدفٌ وغاية، والدولة وسيلة لتحقيق مصالح عامة أخرى.

ومن المؤكد أن قُراء عموم التاريخ قرأوا بأن أعظم خلاف لأمة الإسلام هو خلاف الإمامة وما فيها من القهر والغلبة التي في الغالب تؤدي إلى الفتن، كما هو قول أبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى (٥٤٨هـ): «ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية، كما سُلّ في موضوع الإمامة». ويرى بعض علماء الإسلام أن مطلب الدولة الإسلامية الواحدة أو الخلافة في غالب الأحوال يفتح باب الصراعات، وبالتالي يستنزف القدرات والمقدرات، ويُحرق الكثير من المكتسبات للإسلام والمسلمين في حال تقديم الدولة على العمل بمفاهيم الأمة.

ومع هذا ففي هذا السياق المعرفي عن موضوع الأمة والدولة: «فإن هذا لا يعني أن العلمانية أو النظرة اللادينية لإدارة الدولة يمكن أن تكون حلاً للأزمات، فها هو خليفة المسلمين عمر بن الخطاب -كأنموذج- الذي نشر العدل في أنحاء المعمورة يقول عن الأولويات: (تَفقَّهُوا قبل أن تُسَوَّدُوا)»[1].

وفي الختام أقول:

إنَّ هذه المفاهيم عن أمة الإسلام ومآلاتها هي ما يُفسِّر تضافر جهود دول الاحتلال والهيمنة والتعصب الغربي لحرب مفهوم الأمة وأدواته، وإحلال المفاهيم الضيقة لأمة العرب ولشعوب الإسلام من الوطنيات والقوميات والدويلات، وكذلك محاولات إحلال مفاهيم العولمة الغربية والإنسانية غير الممكنة بديلاً عن مفاهيم الأمة الإسلامية الممكنة! ولا غرابة في أن تكون الحرب على مؤسسات وجمعيات التراحم والتعاون والتعاطف العالمية الإسلامية؛ حيث وسائل الأمة الواحدة تُعدُّ هدفًا لما يُسمى (حرب الإرهاب)، والقطاع الخيري الإسلامي بمؤسساته المتنوعة ووسائله السلمية الحضارية يُعدُّ العمود الفقري لصناعة كثيرٍ من قِيَم الأمة المسلمة الواحدة.

واستهداف المناهج التعليمية في العالم العربي والإسلامي والكيان الأسري العائلي، وإضعاف الروابط والكيانات الرسمية وغير الرسمية التي تربط بين الشعوب المسلمة داخلٌ في إطار هذه الحرب، وكذلك ما يجري في بعض دول الغرب -مع بداية الألفية الثالثة- من إغلاق عشرات المصليات أو المساجد في فرنسا كأنموذج، وإغلاق العشرات من المدارس الإسلامية في السويد، وكلها تُعدُّ مؤشرات على أفول قيم الحريات والحقوق والديمقراطيات في الغرب، بل سوف تنتهي هذه القيم والشعارات حينما يفوز الإسلام أكثر في المنافسة، ويحل مكان هذه القيم في الغرب ذاته محاكم تفتيش على الإسلام والمسلمين، والله أعلم.

وهذا وذاك لا يخرج عن إطار إضعاف أمة الإسلام الواحدة؛ حيث هذه الأممية للإسلام هي ما يعيها الغرب جيدًا ويدرك مآلاتها! بل ويعمل على عدم فاعليتها، والتاريخ لن ينسى السابق واللاحق من أحداثه.

رحم الله مراد هوفمان المفكر الذي كان واعيًا ومدركًا لهذه الأهمية الكبيرة للأمة.

(١) التغلب على العاطفة الدينية: م.معتصم الحوراني - طلبة نيوز للإعلام الحر، بتصرف يسير.، وأثر عمر رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦١١٦).

تأصيل

الفقه الإسلامي.. مفهومٌ وتاريخ وحضارة

د.عمار العيسى (*)

الفقه الإسلامي هو أحد القلاع الحضارية العظيمة للدين الإسلامي، وفيه تتجلّى كثير من جوانب التميُّز والتفرّد بين علوم الأمم، كدقة الاستنباط، وتأصيل القواعد، والتحكيم بين الآراء، وإيجاد الحلول للنوازل والحوادث على مر العصور. وهذه المقالة تلقي الضوء على تاريخه وظروف نشأة المذاهب، ودوره في واقعنا الفردي والمجتمعي

مدخل:

كلمةُ الفقه تدلّ في اللغة العربية على الفهم، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أي: لا يفهمون المقصودَ مِن الخطاب، وقيل: هو فهم المعاني الدقيقة دون الجليلة الواضحة، وقيل: فهمُ مراد المتكلم من كلامه.

والفقه الإسلامي يعني فهمَ ومعرفةَ جميع مسائلِ الدّين أصولاً وفروعًا، عقائدَ وأحكامًا وأخلاقًا، وهذا هو معنى الفقه الذي جاءت نصوصُ الشريعة في بيان فضلِه ومكانتِه، والحثِّ على تحصيله وطلبه، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقول النبي ﷺ: (مَن يرد الله به خيرًا يفقّهه في الدين)[1].

ثَمّ استقر الأمرُ على إطلاق مصطلح الفقه على الأحكام العملية والتي تشمل العبادات والمعاملات وأحكام الأسرة والجنايات والقضاء وما إلى ذلك دون مسائل التوحيد والاعتقاد، ودون قضايا السلوك والتربية والأخلاق.

نشأة الفقه الإسلامي وتطوّره:

مرَّ الفقه الإسلامي منذ نشأته بعدّة مراحل يمكن إجمالها في التالي:

١- مرحلة النشأة والتكوين (عصر الرسالة):

وفي هذا العصر اكتمل نزول الدين وإرساء أسس الشريعة وقواعدها، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلم يُتوفَّ النبي ﷺ إلا بعد اكتمال الدين.

(*) أكاديمي، ومتخصص في البحث والتعليم الشرعي.

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

وكان الصحابةُ الكرام يتلقَّون علومَ الشريعة مِن المصطفى ﷺ مباشرة، وهو يبيّن لهم الأحكام بسنّته، ويقرأ عليهم القرآن الكريم فيفهمونه على الوجه الصحيح؛ لأنه نزل بلغتهم. وما أشكل عليهم والتبس عندهم مِن معانيه سألوه عنه.

تميّز عصر الصحابة بكثرة النوازل والأحداث، فاحتاجوا إلى الاجتهاد وإلحاق هذه الحوادث بما يماثلها مِن الأحكام الواردة في الكتاب والسنة، فظهر العملُ بالقياس الذي أشارت الأدلةُ لمشروعيته، وظهر إلى جانبه الاعتماد على الإجماع الذي دلت الأدلة على اعتباره

٢- عصر الصحابة:

وقد تميّز هذا العصر بكثرة النوازل والأحداث خاصة بعد الفتوحات، ودخول الكثير من الشعوب في الإسلام، فاحتاجوا إلى الاجتهاد وإلحاق هذه الحوادث بما يماثلها أو يشبهها مِن الأحكام الواردة في الكتاب والسنة، ومِن هنا ظهر العملُ بالقياس وطرق الاجتهاد التي أشارت الأدلةُ الشرعية إليها، ودلّت على اعتبارها.

كما ظهر في هذا العصر تقرير أحكام الشريعة اعتمادًا على مصدرٍ ثالثٍ دلّت على اعتباره الأدلّة الشرعية، وهو اتفاقُ أهل العلم في وقتٍ مِن الأوقات على حكمٍ شرعي، وهو ما عرف بـ (الإجماع).

وكان المسلمون يرجعون إلى مَن عُرف من الصحابة بمكانتهم العلمية واشتهروا بالاجتهاد والفتيا ليسألوهم، فيفتونهم بما يعرفون، ويجتهدون بآرائهم في الوقائع الجديدة، كالخلفاء الراشدين، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، وأبي بن كعب، وغيرهم. والمكثرون منهم سبعة فقط، وهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم[١].

وكان هؤلاء الصحابة منتشرين في البلاد الإسلامية، وعنهم أخذ التابعون علمهم وطريقتهم في النظر في المسائل والاستدلال؛ فظهر ما يسمّى المدارس الفقهية[٢]، فكان في المدينة النبوية مدرسة فقهية على رأسها زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر، وفي مكّة مدرسة فقهية على رأسها عبدالله بن عباس، وفي العراق مدرسة على رأسها عبدالله بن مسعود، وفي الشام مدرسة على رأسها معاذ بن جبل وأبو الدرداء، وفي مصر مدرسة على رأسها عبدالله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهم أجمعين.

٣- عصر التابعين:

تتلمذ التابعون على الصحابة وأخذوا من علومهم، فكان عصرهم امتدادًا لهم، وقد ترسخ فيه ظهور المدارس الفقهية والتمايز بينها، وخاصة مدرسة الحجاز التي يكثر بها الأخذ بالأدلة الشرعية لكثرة المحدثين فيها، ومدرسة العراق التي يكثر فيها الأخذ بالرأي المعتمد على القياس الأصولي، وبروز عدد من المشهورين بالفتيا كالفقهاء السبعة[٣].

٤- عصر المذاهب الفقهية:

جاء عصر صغار التابعين وابتدأ فيه تدوين السُنة النبوية، وفتاوى الصحابة والتابعين، وتميز هذا العصر بتوسع الاجتهاد الفقهي، وتوسع تدوين الفقه، فظهرت المذاهب الفقهية المعروفة، وكانت في بدايتها تصل إلى أكثر من عشرة مذاهب، ثم انقرض العديد منها لعدم همّة أتباعها بخدمتها ونشرها، وبقيت المذاهب الأربعة المعروفة.

اختلافُ الهمم والتوجهات والرغبات طبيعةٌ بشرية، وما ينبني عليها مِن تعدّد الاهتمامات والتخصّصات حقيقة واقعية، وقد انعكس هذا التفاوت على العلوم الشرعية ابتداء بجيل الصحابة في عهد النبي ﷺ، فتميزت اختصاصاتهم

(١) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم (٥/٩٢)، وإعلام الموقعين، لابن القيم (١/١٠).

(٢) يطلق مصطلح المدرسة الفقهية على الفقيه المجتهد، والمنهج الذي سلكه في الاجتهاد والتعليم والفتوى، وسار عليه طلابه من بعده.

(٣) هم سبعة من فقهاء التابعين الذين كانوا متعاصرين في المدينة، وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان بن يسار. واختلف في السابع: فقيل هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وهو قول الأكثر، وقيل هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقيل هو أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. ينظر: الموسوعة الفقهية (١/٣٦٤).

كيف نشأت المذاهب الفقهية؟

اختلافُ الهمم والتوجهات والرغبات طبيعةٌ بشرية، وما ينبني عليها مِن تعدّد الاهتمامات والتخصّصات حقيقة واقعية، وقد انعكس هذا التفاوت على العلوم الشرعية ابتداء بجيل الصحابة في عهد النبي ﷺ، فتميزت اختصاصاتهم، فـ(أقضاهم عليٌّ بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيُّ بن كعب، وأعلمُهم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل، وأفرضُهم زيدُ بن ثابت)[1] رضي الله عنهم.

والذين تصدّروا للفتيا مِن الصحابة قلّة إذا ما قورنوا بالعدد الكلّي للصحابة رضي الله عنهم، حيث يبلغ عدد الذين نُقلت عنهم الفتيا منهم مئةً ونيفًا وثلاثين صحابيًا[2]. وهكذا الحالُ في كلّ زمان مِن قلة المؤهلين للفتيا، وندرة المتصدرين منهم.

وقد شكّل ظهورُ المدارس الفقهية المتقدم ذكرها النواة الأولى لتمايز الاتجاهات الفقهية، وصولاً إلى ظهور المذاهب الأربعة؛ ففقهُ الحنفية استند إلى ما تناقله أهلُ الكوفة عن تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه. وفقهُ المالكية وأهل المدينة يرجع إلى ما نُقل عن ابن عمر ومِن قبله زيد بن ثابت. وفقهُ الشافعي يعتمد على الجمع بين فقه أهل المدينة مِن خلال تتلمذ الشافعي على مالك، وفقه أهل مكة من خلال تتلمذه على سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزّنجي، وفقه أهل الكوفة من خلال المناقشة والمناظرة مع صاحب أبي حنيفة: محمد بن الحسن الشيباني. ثم جاء فقه الحنابلة معتمدًا على طريقة الشافعي في الجمع بين المدارس الفقهية السابقة مِن جهة، والتوسع في الرواية وتتبع آثار الصحابة والتابعين مِن جهة أخرى.

وقد وُجد في عصر الأئمة الأربعة مجتهدون آخرون لا يقلّون عنهم علمًا وفقهًا ومكانة في الأمة كالأوزاعي في الشام، والليث بن سعد في مصر، وسفيان الثوري في العراق وغيرهم، ولكن تهيّأ للأئمة الأربعة مِن المقومات الواقعية والأسباب الموضوعية ما أهّل مذاهبهم لتشق سبيلَ الاستمرار والبقاء عبر التاريخ، والمضي في طريق النضوج، وتعاقب العقول والأجيال على خدمتِها وتنقيحِها؛ مما بوّأها رتبةَ الاعتماد، ومنزلةَ القبول العام لدى جميع الأمّة؛ فغدت مدارسَ واضحةَ المعالم للراغبين في معرفة أحكام الشريعة، متكاملةَ الخِدْمات لطالبي التفقّه، أصولاً وفروعًا، تقعيدًا وتمثيلاً، دلائلَ ومسائل.

> **وُجد في عصر الأئمة الأربعة مجتهدون آخرون لا يقلّون عنهم علمًا وفقهًا ومكانة، ولكن تهيّأ للأئمة الأربعة مِن المقومات والأسباب ما أهّل مذاهبهم للاستمرار والبقاء، والمضي في طريق النضوج؛ مما بوّأها رتبةَ الاعتماد، ومنزلةَ القبول العام لدى جميع الأمّة**

الحاجة الدائمة إلى الفقه الإسلامي:

حياةُ الإنسان في هذه الدنيا -التي هي دارُ التكليف- لا بدّ أن تقومَ على مبدأ العبودية لله عز وجل، فالإنسانُ كما أنه خاضعٌ لقدَر الله وتدبيره ومُلكِه، فإنّه لا بدّ أن يخضع لشرعِه وأمْره؛ ليكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبدٌ له اضطرارًا.

ومِن هنا تعظم حاجةُ الإنسان إلى معرفةِ الحكم الشرعي في كلِّ ما يعرض له مِن حوادثَ ونوازل، ولأنّ مِن طبيعة الحياةَ البشرية التغيرَ والتجدّدَ مع مرور الزمان، والانتقالَ مِن السهولة والوضوح إلى التركيب والتعقيد، فإدراكُ الحكم الشرعي في كثير مِن الأحيان لا يتيسر لأكثر الناس بطريقة مباشرة مِن الأدلة الشرعية، بل يستند إلى مقدِّمات اجتهادية تفتقر إلى تحصيلِ علوم، وبناءِ مَلَكة لا تحصل إلا متدرّجةً بعد كثرةِ مطالعة، وطولِ ممارسة، وسعةِ خبرة في تنزيل الأحكام على الوقائع والنوازل.

والوصولُ إلى ذلك لا بدّ فيه مِن التخصص والتمكن العلمي والذهني، وقدْرٍ كبير مِن التفرغ والإقبال الذي يحول دونَه عندَ أكثر الناس أعباء الحياة، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

لذا فإن العالم المتقدّم والفقيه المتميّز مُطالَب بالنظر في أقوال الفقهاء، والموازنة بينها، وتقديم أقواها دليلاً، وأوجهها تعليلاً، وأوفقها لقواعد الشريعة ومقاصدها.

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩١) وابن ماجه (١٥٤) واللفظ له، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/٢١-٢٢).

وليس هذا خاصًا بعلوم الشريعة، بل هو جارٍ في سائر ما يحتاجه الناس مِن علومٍ ومهن كالطبِّ والهندسة والاقتصاد وغيرها، فكلُّ علمٍ مِن العلوم له أهلُه المتخصصون فيه، المعتنون بحقائقه ودقائقه، وهم بمجموعهم المرجع وعليهم المعول في تقرير مسائله، وبيان قضاياه، وقولُهم مقبولٌ في صحةِ ما ينسب إلى هذا العلم دون غيرهم.

وطالب العلم له نصيب من ذلك حسب ترقيه في درجات العلم، فيتفقّه على يد العالم على أحد المذاهب المعتبرة، ويتدرج في معارج التفقه حتى يشتدّ عُودُه، وتتكامل أهليتُه.

أما العامّي (وهو غير المتخصص) فيرجع إلى العالم فيسأله عن الحكم الشرعي، ويأخذ بفتياه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فهو مقلد لأهل العلم والفتوى في هذه المسائل.

> **حياةُ الإنسان في الدنيا لا بدّ أن تقومَ على مبدأ العبودية لله عز وجل، فكما أنَّه خاضعٌ لقدَر الله وتدبيره ومُلكِه، فإنّه لا بدّ أن يخضع لشرعِه وأمْرِه؛ ليكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبدٌ له اضطرارًا؛ ومِن هنا تعظم حاجةُ الإنسان إلى معرفةِ الحكم الشرعي في كلِّ ما يعرِض له مِن حوادثَ ونوازل**

فالفقهُ في الحقيقة هو الترجمة الواقعية التي لا بدّ منها للتطبيق العملي لأحكام الله تعالى؛ لأنَّ تنزيلَ الأحكام التي تضمنتْها نصوصُ الشريعة على الواقع يتوقف على تحقّق الأوصاف والمعاني التي عُلّقت بها تلك الأحكام ورُبطت بها، وهذا يتطلّب قبل ذلك تخريجَ تلك الأوصاف والعلل مِن النّصوص وتنقيحَها لتكون صالحة لبناء الأحكام عليها، وهذه الأعمال يضطلع ويقوم بها المجتهد بحكم اختصاصه ودُربته في الاستنباط، وارتياضه للعلوم الشرعية..

فالفقهُ عبارةٌ عن حركة حية تفاعلية بين الواقع مِن جهة والنصوص الشرعية مِن جهة أخرى، تقوم على جهودٍ دائبةٍ للمجتهدين في تحقيق متطلّبات الحياة المتجدّدة مِن الأحكام الشرعية؛ لأنّ النصوصَ الشرعية تتطلب واقعًا تُطبّق عليه، والواقع يتطلّب معرفةَ الحكم المناسب له مِن خلال النصوص، والوصول إلى هذه المواءمة وسدّ تلك الحاجة إنما يكون مِن خلال جهود الفقيه المتمرس على اقتناص الأحكام مِن النصوص، واستخراج المسائل مِن الأدلة.

وهكذا كان حال الفقهاء في كل عصر مع الحوادث والمستجدات: يبحثونها، ويوردون لها الحلول والتكييفات الشرعية، بل كانوا في الكثير من الأحيان يسبقونها؛ حتى استطاع الفقه استيعاب كل المنتجات الإنسانية الحضارية، والتكيف معها، بل واستخراج أفضل ما فيها وتطويرها، فشهد العالم الإسلامي وبلدانه ثورة علمية جارية على جميع المستويات المعرفية إلى جانب التطور الفقهي جنبًا إلى جنب، بتناغم وتكامل دون اصطدام أو اختلاف.

دور الفقيه في المواءمة بين الأدلة والوقائع:

ومع تنوّع مجالات الحياة وتعدّد اختصاصاتها في العصر الحالي تزيد مسؤولية الفقيه في إدراك واقع تلك المجالات، وتحرير ما يؤثر منها في الحكم الشرعي فـ«لا يتمكن المفتي ولا الحاكم مِن الفتوى والحكم بالحقّ إلا بنوعين مِن الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباطُ علمِ حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حُكْم اللَّه الذي حَكَم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبّقُ أحدَهما على الآخر»[1].

وكلما تطورت مناحي الحياة، وتجددت أساليبُ التعامل، وتغيرت أنماطُ التفاعل بين مكوناتها عظمت الحاجة إلى دور الفقيه والمجتهد الواقعي الذي يحافظ على أصالة الفقه، ويحرس قداسة النصوص مِن جهة، ويوائم الواقع، ويتفاعل بإيجابية مع التغيرات المتسارعة مِن جهة أخرى، ومِن هنا كانت الحركة الفقهية المستمرة ضرورة واقعية، وحاجةً حضارية ملحّة، فالقولُ بإغلاق

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم (١٦٥/٢).

باب الاجتهاد يعني بالضرورة قطعَ الصلةِ بين الوحي والواقع، والمصير إلى الانفصال بين النصوص الشرعية وعملية الاستنباط التي لا بدّ منها في تنزيل ما تضمنته تلك النصوص مِن أحكام على وقائع الحياة، وأحوال الناس.

وإبقاء هذه الصلةِ حيةً قويةً لا بدّ منه في استمرار صلاحية أحكام الشريعة لكلِّ زمان ومكان، ولا يكفي لقطعِها التذرعُّ بضعف الأهلية، والخوف مِن الفوضى الدينية لتبرير الدعوة إلى إغلاق باب الاجتهاد، وإنما يتطلب هذا الدعوةَ إلى الانضباط في ممارسة الاجتهاد، والاحتكام في تقويمِه واعتباره إلى القواعد المعتبرة والشروط المقررة، والمصير في القضايا الكبرى والشؤون العامة إلى الاجتهاد الجماعي عبرِ هيئات العلماء ومجالس الإفتاء الموثوقة تحقيقًا للمرجعية، وضبطًا لإيقاع الفتاوى الشرعية، وحمايةً لعموم الناس مِن أثر اضطراب الفتاوى الفردية.

الفقهُ حركة تفاعلية حية بين الواقع مِن جهة والنصوص الشرعية مِن جهة أخرى، تقوم على جهودٍ دائبةٍ للمجتهدين في تحقيق متطلبات الحياة المتجدّدة مِن الأحكام الشرعية

عصرنا ومدونات الفقه:

تضمنت مدوناتُ الفقهاء، وتآليفُ العلماءِ ثروةً علمية كبيرة، وحصيلةً معرفية ضخمة لجهود آلاف العلماء الذين بذلوا نفائسَ أوقاتهم، وزبدةَ أعمارهم في تحرير التراث الفقهي، وتتابعوا على تنقيح المسائل، ونقد الأدلّة، وتقليب الأقوال، ونقاش أوجه الاختلافات؛ فصارت تلك المدونات مراجعَ معتمدة، ومصادرَ معتبرة للباحثين والمتفقهين، وكثيرًا ما تستغلق بعض المسائل المعاصرة على المتفقهين والباحثين، ويعسُر تكييفُ بعض النوازل، ومِن خلال الغوص في أعماق تلك المدونات يُعثر على سوابق فقهية لمجتهدين سابقين، وفتاوى شرعية شبيهة يمكن البناء عليها، والاستناد إليها في التوصيف الشرعي لهذه الحوادث، والتخريج الفقهي على الاجتهادات السابقة، فتلك المؤلَّفات تقدم حلولاً كثيرة لمشاكل متنوعة، وبنكًا مِن الخبرات الاجتهادية المعتبرة في معالجة الحوادث المستجدة.

تشكل كتبُ الفقه مجموعَ جهودِ علماء الأمة الإسلامية عبر القرون في بيان أحكام الله مِن أصول الشريعة وفق مناهج اجتهادية معتبرة، ومسالك تفقّهية منضبطة، وهي على مستوياتٍ متعددة، يناسبُ كلُّ مستوى منها رُتبةً مِن الطلاب والمستفيدين

تنوع مدونات الفقه واختلاف أغراضها:

تشكل كتبُ الفقه مجموعَ جهودِ علماء الأمة الإسلامية عبر القرون في بيان أحكام الله مِن أصول الشريعة وفق مناهج اجتهادية معتبرة، ومسالك تفقهية منضبطة، وهي على مستويات متعددة، يناسبُ كلُّ مستوى منها رتبةً مِن الطلاب والمستفيدين:

- فمنها الكتب المختصرة التي تذكر في كلِّ مسألةٍ قولاً واحدًا في أحد المذاهب الفقهية، فتكون مناسبةً للمبتدئين في دراسة الفقه وطالبي معرفة الأحكام مِن عموم الناس (مثل متن أبي شجاع في الفقه الشافعي، وكتاب عمدة الفقه في المذهب الحنبلي).
- ومنها الكتب التي تعتني بذكر مستند تلك الأقوال مِن الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فتفيد طالب العلم في فهم مسالك الفقهاء، وسبل العلماء في الاستنباط (وغالبًا ما تكون شروحًا وتوضيحًا لكتب المستوى السابق).
- ومنها كتبٌ أوسع تتناول تحريرَ الأقوال والخلافات داخل المذهب الواحد ليتمرن الطالبُ على معرفة الخلاف، ومآخذ الأقوال، ومنهجية اختيار الأقوال للفتوى والعمل (مثل كتاب المهذب للشيرازي عند الشافعية، وكتاب الكافي عند الحنابلة).
- ومنها كتب موسعة في عرض مذاهب الفقهاء، والاستدلال لها، والموازنة بينها (مثل: كتاب المجموع للنووي، وكتاب المغني لابن قدامة).
- ومنها كتب الفتاوى التي تعتني بالإجابة عما يعرض للناس مِن مشكلات ومواقف يحتاجون فيها إلى معرفة الحكم الشرعي، وتورد ما يتكرر حصولُه، ويكثر السؤالُ عنه.
- ومنها كتب القواعد والضوابط الفقهية التي تجمع الأحكام المتشابهة في قاعدة تضبطها

وتسهّل حفظَها (مثل: كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي والقواعد لابن رجب الحنبلي).

فالمؤلفات الفقهية تلبي الاحتياجات المتنوعة للمسلمين، والمتطلبات المتجددة من النوازل والحوادث.

تميَّز الفقه الإسلامي بشموله واستيعابه لكل المجالات والحاجات البشرية مهما تنوَّعت وتطوَّرت، بثبات أصوله وقواعده، ومرونة جزئياته وفروعه، واحتفاظه بحيوية الاجتهاد والتجديد، وتجرُّده من الحظوظ والنزعات، مما يجعله صالحًا لجميع البشرية، وللبقاء في كل زمانٍ ومكان

الفقه الإسلامي قيمة حضارية:

للفقه الإسلامي مكانة شامخة في التراث الإنساني؛ فقد مثلت أحكامه وقواعده الضوابط والأنظمة الضرورية للمجتمع والأفراد سواء في علاقاتهم مع ربهم، أو علاقاتهم فيما بينهم، أو علاقاتهم مع الكون.

تلك القواعد والأنظمة التي لا يستطيع الإنسان أن يتخلّى عنها، ولا تستقيم حياتُه بدونها، ولم تخل جماعة بشرية على مر التاريخ من شكل مِن أشكالها؛ لتحقيق التوازن بين الحقوق والواجبات، والتحاكم إليها عند الخصومات ولفض النزاعات.

لكن ما ميز الفقه الإسلامي عن غيره من الأنظمة والقوانين: شموله واستيعابه لكل المجالات والحاجات للجماعات البشرية مهما تعددت وتنوعت وتطورت، بثبات أصوله وقواعده، ومرونة جزئياته وفروعه، واحتفاظه بحيوية الاجتهاد والتجديد، وربانيته التي تجرده من الحظوظ الشخصية والنزعات القومية أو الضيقة، مما يجعله صالحًا لجميع البشرية، وللبقاء في كل زمان وعصر، فوق أي بقعة ومصر، بخلاف الأنظمة والقوانين الوضعية التي تتسم بالنسبية والمرحلية، وتعاني من الانحياز والاضطراب الذي يصل في بعض الأحيان إلى التناقض، فما يكون بالأمس جريمة يعاقب عليها القانون قد يصبح اليوم حقًا من الحقوق التي يجب الاعتراف بها، ويعاقَب بالقانون كلُّ مَن يصرح بانتقاده أو عدم القبول به، بل ربما تتكاتف الدول المتعددة لإلزام الدول الأخرى به والتلويح بالعقوبات في حال عدم الرضوخ لذلك كما يحصل هذه الأيام من الترويج للقوانين التي تخالف العقل وتخرج عن الفطرة!

كما أن الفقه الإسلامي متصالح بل ومنسجم مع سائر العلوم الإنسانية والطبيعية، ومتفاعل مع الإيقاع المتسارع لحركة التطور والتقدم البشري، بل لا يتمكن الفقيه من الوصول إلى الحكم الشرعي في كثير من النوازل إلا بالاطلاع على علوم أخرى، والرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص في كثير من النوازل والوقائع.

وختامًا:

فإن قواعد الفقه الإسلامي وأنظمته صالحة للتطبيق والاستفادة والاستنساخ حتى بين المسلمين ممن ينشدون الأنظمة المتكاملة المتوازنة. ينسب للمستشرق النمساوي ألفرد فون كريمر في فضل الفقه الإسلامي وخصائصه من الناحية القانونية قوله: «إنَّ الفقه الإسلامي هو أعظم عملٍ قانوني في تاريخ العالم يفوق القانون الروماني وقانون حمورابي؛ نظرًا لما فيه من حكمةٍ إلهيةٍ وبناءٍ منطقيٍّ هائل، لكنَّ الفقه لم يُسجِل الشريعة في مواد قانونيةٍ محدَّدة حتى لا يُصيبها الجمود وتحتاج إلى تغير، وإنما أبقى أحكامًا ومبادئ عامة، لذلك فهي صالحة لكل البشر في كل زمان و مكان».

ومن هنا اعتمدت كثير من الدول ورجع العديد من واضعي القوانين إلى مدونات الفقه، ومن الأمثلة على ذلك القانون الفرنسي (أبو القوانين الوضعية)، الذي تأثر بالفقه من خلال اطلاع (نابليون بونابرت) ومن كان معه أثناء حملته على مصر، وظهر ذلك الأثر فيما وُضع بعد ذلك من قوانين.

الفقه الإسلامي متصالح ومنسجم مع سائر العلوم الإنسانية والطبيعية، ومتفاعل مع الإيقاع المتسارع لحركة التطور والتقدم البشري، بل لا يتمكن الفقيه من الوصول إلى الحكم الشرعي في كثير من النوازل إلا بالاطلاع على علوم أخرى، والرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص فيها

الفصل بين الجنسين أم الاختلاط في السياقات العلاجية والمهنية والتعليمية؟

أ. هدى عبد الرحمن النمر(*)

بينما تسعى بعض الدول في عالمنا الإسلامي نحو زيادة الخلط بين الجنسين في البيئات التعليمية والوظيفية وغيرها، نجد موجة تراجع واضحة لصالح الفصل بين الجنسين في عدد من الدول الغربية والتي كانت رائدة الخلط والدعوة إليه، فما هي الآثار المترتِّبة على كلٍّ من التوجُّهين؟ وهل يمكن تفادي آثارها السلبية؟ في هذه المقالة مناقشة لهذه القضية في السياقات العلاجية والمهنية والتعليمية

مدخل:

من المسائل المثيرة لجدلٍ لا يكاد يهدأ حتى يثور: مسألة الاختلاط بين الجنسين في مختلف السياقات المهنية والتعليمية والعلاجية، التي يراها البعض ضرورةً يفرضُها نظام العصر الحديث، ويراها آخرون شرًّا لا بدَّ من تلافيه بالكلية، والعودة لزمان حجب النساء خلف المشربيات أو في ركن الحريم.

فالسؤال المطروح إذن: هل هناك حاجة حقيقية تدعو للجمع بين الجنسين في تلك السياقات الثلاثة خاصة (العمل، والتعليم، والعلاج)؟ وهل يعود الجمع بينهما بالنتائج المحمودة والمرغوبة المُعلن عنها، من زيادة الإنتاجية أو توسعة الصلات الاجتماعية أو إثراء الآفاق الثقافية؟

> **لا بدَّ من فهم اختلاف طبائع المرأة والرجل في مكامن الشهوة ووسائل تلبيتها، والتأمل في الآثار المترتبة تلقائيًّا وبالضرورة على اختلاطهما معًا، فهي تُصرّح عن مدى نفعها وضررها بنفسها دون الحاجة لتكلّف تأويلٍ أو استنباط**

(*) كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

وبينما جاءت الشريعة بمعالم بيّنة في حدود وآداب التعامل بين الجنسين حين تدعو الحاجةُ لاجتماعهما، تهدف السطور التالية لبسط الجواب عليه من ناحية علمية ونفسية واجتماعية.

اختلاف طبائع الرجل والمرأة:

بدايةً، لا بدَّ من فهم اختلاف طبائع المرأة والرجل في مكامن الشهوة ووسائل تلبيتها، والتأمل في الآثار المترتبة تلقائيًّا وبالضرورة على اختلاطهما معًا، فهي تُصرّح عن مدى نفعها وضررها بنفسها دون الحاجة لتكلّف تأويلٍ أو استنباط.

وبالرغم من أنَّ المصنَّفات والمواد العلمية الجادَّة التي يمكن الرجوع لها لتعلُّم هذه المسائل ستكون في غالبها من المصادر الأجنبية، إذ الموارد العربية بضاعتُها مزجاة في هذا المجال وغالبها مترجم. من ذلك مثلًا: ما تنشره الدورية الفصلية «سيكولوجية النساء Psychology of Women Quarterly» و«جمعية علم النفس الأمريكية American Psychology Association» عن أبحاث حول مسألة الصداقة بين الرجال والنساء، والأثر النفسي الذي يُحدثه التقارب الفيزيائي بينهما في مختلف المعاملات خاصة التي تتطلب احتكاكًا دوريًّا؛ كبيئة الجامعة أو الوظيفة، إلا أنَّ غالب تلك الأبحاث يخلُص إلى أنَّ تلك الاحتكاكات ليست بريئة تمامًا، ولا تكاد تسلمُ صلةٌ بين رجلٍ وامرأةٍ من رغباتٍ شخصية Personal Desires من أحد الطرفين، تكون عاطفيةً معنويةً Emotion/Passion غالبًا من جهة الأنثى، وجنسيةً ماديّةً Sex/Lust من جهة الذكر[1]. وتنشر دورية Science Daily للأخبار البحثية مقالاتٍ ودراساتٍ في المجال، منها ما تناول كيفيةَ تفاعُلِ دماغ الرجال والنساء عند النظر لصُور الجنس الآخر[2].

ومن مجموع الرصد والملاحظة لتلك الاختلافات في الطبائع والاستجابات، يتأكَّد أن الجمع بين الجنسين في أيّ سياق عامّ كفيلٌ بإحداث نوعٍ من توزيع الانتباه اللاواعي والتلقائي بالضرورة. فإذا زادت مؤثِّراتُ شخصنة السياق ومهيّئات الإحساس بالألفة والحميميّة فيه Intimacy، زاد احتمالُ التباسِ المشاعر الشخصية واستقبال رسائل خاطئة بين الجنسين بنسبةٍ أكثرَ مما بين أفراد الجنس الواحد.

ثم إنَّ سياقاتِ التربية والتعليم والعلاج تعتمدُ على تكرار اللقاء والاحتكاك، وتسعى عمدًا لخلق جوٍّ من الألفة والمودّة بين أفرادها لتحقيق أهداف المقام الإصلاحية والعلاجية. أمّا سياقات المعاملات العامة غير القائمة على الشخصنة والتآلف بين أطرافها كالندوات العابرة، أو المعاملات الإجرائية كالبيع والشراء، فتحكُمُها حدودٌ تمنع غالبًا من وقوع ما سيأتي ذكره من المآخذ حال الاختلاط، ولذلك فهي خارج محل المناقشة هنا.

وبناء عليه فهل الأنفع والأصلح في السياقات العلاجية والمهنية والتعليمية الفصل أم الخلط بين الجنسين؟ هذا ما نُسلِّط عليه الضوء من خلال نموذج تطبيقي في كل سياق:

> **سياقات التربية والتعليم والعلاج تعتمدُ على تكرار اللقاء، وتسعى عمدًا لخلق جوٍّ من الألفة والمودّة بين أفرادها لتحقيق أهدافها. أمّا سياقات المعاملات العامة كالندوات العابرة، أو المعاملات الإجرائية كالبيع والشراء، فتحكُمُها حدودٌ تمنع غالبًا من وقوع ما لا يحمد**

١. السياق العلاجي

من صور اللقاءات الاجتماعية المستحدَثة: ما يعرف بـدوائر العلاج الجماعي Group Therapy، التي يجتمع فيها عددٌ من الأفراد يُعانون من المشكلة نفسها، أو يواجهون مشكلات في المجال نفسه، ليتشاركوا خبراتهم الوجدانية والعملية، من باب التنفيس من جهة، وللتوصُّل لمقترحاتِ حُلولٍ من جهةٍ أخرى. بدأ هذا النهج فرعًا عن وسائل العلاج النفسي، ثم توسَّع ليُعقَد في مختلف المجالات بمختلف الدوافع، ولا يعتمد في ترتيبه سوى على اتِّفاق مجموعة الأفراد المعنيِّين. مِثلُ هذا السياق يتضمَّن قدرًا كبيرًا من الإفصاح عن الذات والتفاصيل الشخصيّة، بالإضافة إلى

(١) تقرير بعنوان: (Can men and women be just friends?) هل يمكن للرجل والمرأة أن يكونا صديقين فحسب؟! من إعداد أبريل بليسكي وديفيد بوس، عام ٢٠٠٠م، نشر جامعة تكساس في أوستن.

(٢) من بحث بعنوان: (How our brains see men as people and women as body parts?) كيف تحلل أدمغتنا الرجل بوصفه إنسانًا والمرأة بوصفها أعضاء؟ نشرته مجلة ساينس ديلي نقلًا عن جامعة نبراسكا، ٢٠١٥.

أنَّ أفرادَه يكونون بالفعل على جانب كبير من الهشاشة النفسية Vulnerability والفراغ العاطفي Emotional Void[1]. وتضافُر كلِّ هذه العوامل معًا له أبعادٌ خطيرةٌ حين يُمارسه الجنسان معًا، إذ ينشأ بالضرورة مناخٌ مثاليٌّ لإساءة إرسال واستقبال الرسائل الخاطئة.

مثلًا، يكثر في تلك المجموعات أن يخلط الفردُ بين الشعور بالارتياح الناشئ من البَوح والتفاهُم والتضامُن الوجداني المتشارَك، والشعورِ بالارتياح (أو على وجه الدقة النشوة المريحة) الناشئ من الميل الغريزي للجنس الآخر ولَذّة حيازة الانتباه منه. ويزيدُ تأجيجَ تلك الشهوة الخفية المُسمَّى «الخيري» أو «النبيل» أو البريء ظاهريًّا الذي تستتر تحته ممارساتُ «المساعدة» و«المساندة» و«التعاطف»: كأن يتَّصل رجلٌ بامرأةٍ أجنبيةٍ عنه يسألُها عن أحوالها ويسمعُ لفضفضتِها باعتبارهما رفيقي رحلةِ تعافٍ وتآزُر، في حين أنَّه ما كان ليُقدِم على تلك البادرة ولا تسعد هي باستقبالها في ظلِّ الظروف العادية. كذلك لا تُخطئ امرأةٌ – في العادة – فهم شعور التعاطُف الصادر من امرأةٍ أخرى على أنَّه تعاطُف، لكنَّها بسهولةٍ يمكن أن تخطئ فهمه على أنَّه نوع انجذابٍ خاصٍّ حين يَصدُر من رجل. وبالمِثل، لا يُثير -عادةً- ثناءُ رجلٍ على رجلٍ أو نظرةُ تفاهُم معه ما يُثيره فيه ثناءُ امرأةٍ ونظرةٌ منها من مشاعرَ قد لا تتَّصل بالسياق ولا تحتملُها أهدافُه، كأن يظنها تُكنّ له مشاعر شخصية.

وبهذا يتَّضح كيف أنَّه لا وجه للتحجُّج في هذا المقام بدعاوى التفتُّح والتثاقُف بين الجنسين، فلا هذا مقامُها ولا تلك المقاصد تتحقَّق في تلك البيئة أو من ذلك الوجه. ومن نافلة القول أنَّ الشرع لا يُجيز مثل تلك الممارسات بين رجلٍ وامرأةٍ أجنبيين، ولو تحت مسمَّيات الإنسانية والخيرية والشهامة... إلخ، بل تلك المسمَّيات لا تجوز أصلًا على تلك الممارسات غير البريئة بحال من الهوى والشهوة!

ويجدر التنبيه إلى أنّ كون بعض المشاركين في تلك المجموعات متزوِّجين ليس عاصمًا ولا حتى واقيًا من تعرّض أفرادها لكل ما سبق ذكره من إشكالات، أو إشعال فتيلها في غيرهم. فتلك إشكالاتٌ تتعلَّق بالأساس بـــ: طبائع الجنسين، وطبائع الشهوة بينهما، ومدى جهلِ الفرد بُكلٍّ منهما وبالتالي: سوء تقديره واستقباله وتعامله معهما.

والخلاصة: أنَّه بغير انضباط نهج المجموعات العلاجية، ومع استمرار تطبيقاتها الفوضوية، فإنّ ضررها في تأجيج باطن الشهوة (القصد والإحساس) وظاهرها (السلوك والتجاوب) سيكون أكثر من نفعها في الغالب. بل قد يكون ضررُها أشدّ من الضرر الأساسيِّ الذي يُعانيه المُقبلون عليها للخلاص بها! مع العلم أنّه حتى المراجع الأجنبية لا تخلو من تعديد المآخذ والعيوب على نهج المجموعات العلاجية[2]. لكننا اكتفينا هنا بلفت النظر لأهم الآفات التي تعنينا من المنظور المسلم.

عادةً لا تُخطئ المرأة فهم شعور التعاطُف الصادر من امرأةٍ أخرى، لكنَّها بسهولةٍ يمكن أن تخطئ فهمه على أنَّه نوعُ انجذابٍ خاصٍّ حين يَصدُر من رجل. وبالمِثل، لا يُثير -عادةً- ثناءُ رجلٍ على رجلٍ ما يُثيره فيه ثناءُ امرأةٍ ونَظرةٌ منها من مشاعرَ، كأن يظنّها تُكنّ له مشاعر شخصية، وهذا جزءٌ من مخاطر المجموعات العلاجية

٢. السياق المهني:

من مظاهر الاحتكاك الاجتماعي الشائعة بين الجنسين ما يكون بين زملاء العمل. وهذا من السياقات العامرة بالمحاذير والمحفوفة بالفتن، ومع ذلك ما أكثر ما يُغفَل عن حدوده وتُؤمَن جوانبه تمامًا عند أصحابها، بسببِ درجة الألفة والاعتياد التي تسود أجواءه. وهذه الألفة عينها هي أولى مكامن الخطر، لأنها تَذهَب بحذر المرء وانتباهه على المدى لمسألة مكامن الشهوة وتواجد الفتنة (طبيعة الانجذاب الغريزي بين الجنسين) حين يجتمعان، خاصةً في ظلِّ عدم العناية بتذكرة النفس وتجديد الوعي بانضباط مسلك الفرد حين يتعامَل ويُعامَل، وبالتالي تُرفَع الكُلفة وتَسقُط الهيبة وتذوبُ الحدود النفسية بين الأفراد، بما يمهِّد للتجاوز في السلوكيات الفعلية والقولية.

(١) خصوصًا حين يكون هدف المجموعات هو تبادل الدعم النفسي، أو التشارك في إيجاد الحلول للمشكلات.

(٢) مقطع مرئي بعنوان: (Working at a $1000/Day Corrupt Rehab | Informer) العمل بمرتب ١٠٠٠ دولار في اليوم، على منصة يوتيوب.

من الآثار التي تحدثها البيئات المختلطة

ومن ثَمّ كان احتمال وقوع هذه الفتنة من الدواعي التي قد تَمنع شرعًا من ركوب امرأةٍ سيارةً مع زميلٍ عملٍ أو أيِّ رجل من معارفها من غير ذوي المحارم، بخلاف سيارة الأجرة، مع أنَّ الظاهر في الحالين أنَّ المعطيات واحدة! وذلك لأنَّ الألفة في السياق الأول تفتح باب الأُنس وداعي التقارب وفرصة تجاذب أطراف كل أنواع الحديث القوليِّ والفعلي (نظرات العيون ونبرة الصوت وإيماءات الجسد فضلًا عن الفَوَران الداخلي متمثلًا في الشعور بالنشوة أو الإثارة وزيادة خفقان القلب ... إلخ)، ويندُرُ أن يسلم مثل ذلك الاجتماع من محاذيرٍ ومكروهات، إذا لم يقارِب محرّمًا أو يقع فيه!

٣. السياق التعليمي:

ومن أشهر نماذجه -ولعلَّه الأشهر بين سائر أشكال الاجتماع بين الجنسين عامة- المدارس المختلطة، فيكفي أن نُلقي نظرةً على الدراسات الأجنبية المتواترة للتنبيه على محاذير الخلط في ذلك السياق، من ناحيةٍ تعلميةٍ تربويةٍ بحتة. مثلًا: في دراسة لقناة BBC البريطانية[١] عن وقائع التعليم في المدارس المنفصلة والمختلطة، ظهر أنَّ عدد المدارس المنفصلة انخفض للنصف في بريطانيا في آخر ٢٠ سنة بدعوى فتح أبواب التفتُّح العلمي والاجتماعي، ومع ذلك كان معدّل درجات GCSEs للطالبات أعلى باطّراد في المدارس المنفصلة عن نظيراتهن من طالبات المدارس المختلطة، بنسبة ٧٥٪ للمنفصلة إلى ٥٥٪ للمختلطة؛ وذلك عائدٌ بالأساس إلى قدرةِ الأفراد على «التركيز» في الدراسة وبناء صلاتٍ اجتماعية مع الأقران، دون أن يُضاف لهذين عبءٌ ثالثٌ يحتلُّ غالبًا المساحةَ الكُبرى من الاهتمام؛ وهو انطباعات الجنس الآخر ومحاولة التقرُّب منه، وتكوين علاقاتٍ غراميةٍ مع فردٍ فيه، فيما يعرف بظاهرة «الإلهاء الجنسي Sexual Distraction». بل وأظهرت تلك الدراسة وغيرها أنَّ الفتيات في المدارس المنفصلة يُسجِّلن تفوُّقًا لافتًا في المجالات التي يترأَّسُها الشباب عادةً في المدارس

(١) من تقرير للبي بي سي بعنوان: (What Are The Advantages Of Single Sex Schools?) ما هي مميزات المدارس أحادية الجنس ؟ BBC Active.

المختلطة، أهمها العلوم التطبيقية والرياضيات. وعددُ الفتيات المتَّجهات للمجالات الهندسية والعلمية في المرحلة الجامعية من المدارس المنفصلة ضعف عدد نظيراتهن من المدارس المختلطة. وعللت الدراسة ذلك بما يسمى ضغط الأقران Peer Pressure، إذ هو من العوامل المؤثِّرة بشكلٍ كبيرٍ في الوسط المدرسي في تحجيم الاختيارات الفَردية؛ فالنمطُ السائد في المدارس المختلطة يجعلُ اهتمامَ الفتاة بمثل تلك المجالات مسلكًا غيرَ أنثوي خاصةً في نظر أقرانها من الشباب، ويتم وصمهنّ بصفاتٍ تدلُّ على الهَوَس أو غرابة الأطوار: geek, nerd, weirdo, dweeb.

وفي المقابل، تُظهر الدراسة أنَّ شعبيةَ المدارس المختَلَطة ترجع في الأساس للانطباع السائد أنَّها تعين الجنسين على الاختلاط الطبيعي من سنٍّ مبكِّرة، فلا يقعون في فجوة الانفصام بين الحياة المدرسية المنعزلة والحياة الاجتماعية القائمة على مخالطة الجنس الآخر، خاصةً حين يُقبلون على المرحلة الجامعية التي لا تُتاح في غالبها فرصة الفصل، فيتعامل كلُّ جنسٍ مع الآخر بتصوراتٍ مثاليةٍ تخالف الواقع.

> **حسب الدراسات تسجِّل الفتيات في المدارس المنفصلة تفوُّقًا لافتًا في المجالات التي يترأَّسُها الشباب عادةً في المدارس المختلطة، أهمها العلوم التطبيقية والرياضيات. وعددُ الفتيات المتَّجهات للمجالات الهندسية والعلمية في المرحلة الجامعية من المدارس المنفصلة ضِعف عدد نظيراتهن من المدارس المختلطة**

لكن تظلُّ الحقائق والإحصاءات عائقًا أمام القطع بهذه المزية للمدارس المختلطة، إذ تذكر مقالةٌ نشرتها صحيفة الهافينجتون بوست أنَّ «أكثر من ثلث الطالبات تعرَّضن للتحرُّش في المدارس المختلطة»[١]. وفي بحث لمجلة The Educator الأسترالية[٢] يقارن بين نوعي التعليم، أنَّ أهداف المخالطة الاجتماعية السويّة التي أُقيمت لأجلها المدارس المختلطة لا تتحقَّق على النحو المرجوِّ في ظلِّ انتشار وقائع حالات التحرُّش والتنمّر والعُنف الجسدي والعُقَد الجنسية. فضلًا عن أنَّ مرحلة المراهَقَة بالذات تتَّسمُ بفَوَران الشهوة والرغبة لدى الجنسين، فتكثُرَ الغرامياتُ والاشتغال بالعلاقات العاطفية وما يعرف بـ «الكراش» Teen Crush[٣]، وتصرُّف الطلبة في كثير من الحالات بعيدًا عن التركيز الدراسي والتحصيل العلمي. بل وينبِّه البحث على أنَّ ثمة فارقًا كبيرًا بين تخصيص فصلٍ للبنات في مدرسةٍ مختلطة، وبين كون البيئة الدراسية كلِّها قائمةً على توحيد الجنس، فَالأخيرة تخلُقُ «مساحةَ أمان» وتتيح «تفصيل» البيئة بكاملها تعليميًّا وتربويًا لموافقة احتياجات الفتيات.

وصحيحٌ أنَّ جودة العملية التعليمية عامةً تقوم على عواملَ عديدةٍ لا تقتصرُ على جنس الطلبة، مثل نوعية المعلّمين وتجديدات المناهج التعليمية وتنويع الأنشطة... إلخ، إلا أنَّ عامل الفصل والخلط بين الجنسين من أكثرها تأثيرًا ويتجاوزُ أثرها حُدود أسوار المؤسسات التعليمية.

ختامًا:

لعلَّ هذه الوقفات التطبيقية عند كلِّ سياقٍ تُدلِّل على عمق تفاصيل طبائع الجنسين، ومكامنَ شهواتهما، وتعدُّد أبعاد مضارّ ومنافع الاحتكاك الاجتماعي بينهما، وعلى خطر الجهل بكل تلك العلوم. ومع ذلك يُقابَل الموضوع بسطحيةٍ واستهانةٍ في النموذج المعرفيِّ العربيِّ بدعوى التفتُّح، أو باستنكارٍ وتجريمٍ في النموذج المعرفي المسلم بدعوى الحشمة! مع أنه من العلوم التي لا يسع الفردَ الجهلُ التامُّ بها، وهو لازمٌ للتعاملِ السَويِّ مع نفسه ثم مع مَن حولَه، ولاتخاذ تدابيرَ صيانة نفسه وغيره في تلك المعاملات.

(١) من مقال بعنوان: (More Than A Third Of Girls Have Been Sexually Harassed While At Mixed-Sex Schools, Study Finds) دراسة تبيّن أن أكثر من ثلث البنات تعرضن للتحرش الجنسي في المدارس المختلطة، هافينجتون بوست ٢٠١٧م.

(٢) من مقالة بعنوان: (Co-ed schools perpetuate outdated sexual attitudes) المدارس المختلطة تشجع على استدامة مواقف جنسية عتيقة، نشرتها صحيفة ذا إديوكيتور الأسترالية، ٢٠١٢م.

(٣) تعريف crush: تعبير يُفيد الإعجاب أو الهيام بشخصٍ ما، خاصةً من طرفٍ واحدٍ، وترتبط دلالته بمرحلة المراهقة كونها مرحلة فوران العواطف عادةً بطيشٍ وسذاجة. راجع قاموس هاربر كولينز.

تزكية

الهدايات القرآنية للمتدبِّرين

د. عمر النشيواتي (*)

في القرآن الكريم موضوعاتٌ متنوعة، وقضايا متفرِّقة، تتَّفق في أنَّها تحقق هدفاً محوريًا يتلخَّص في كون القرآن هدى للناس يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن تلك الموضوعات: الهدايات التي تشتمل عليها الآيات، لأهميتها الكبرى وفائدتها العظيمة، فما هو المقصود بها؟ وما أقسامها؟ وما ضوابطها؟

مقدمة:

تختلف اهتمامات المتأمِّلين لكتاب الله في حلقات التدبُّر والتفسير والمدارسة القرآنية:

فمنهم مَن يصرف الجهد في النظر إلى جوانبَ تتعلَّق باللغة والنحو والصرف، ومنهم من يتتبَّع ما في القرآن مِن وجوه البلاغة مما يندرج تحت علم البيان: كالحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة، أو علم المعاني: كالخبر والإنشاء والقصر والفصل والوصل والإيجاز والإطناب وصيغها وأغراضها، أو علم البديع: كالمحسِّنات اللفظية من جناسٍ واقتباسٍ وسجعٍ وتوريةٍ وطِباقٍ ومقابلةٍ ونحوها.

ومنهم مَن يتأمَّل ما فيه مِن اللفتاتِ الفنية وجوانب الجمال في النسَق والنظم والسياق وحُسن تركيب الكلام والآيات وتركيب الجُمل في الآية الواحدة والمقطع والسورة، ومِن مهتمٍّ بما فيه مِن معارفَ وعلومٍ وأخبار، وما تضمَّنه مِن الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، أو الغيب أو قصصِ مَن سبق مِن الأمم والأحداث، ومِن متتبِّعٍ لصور الإعجاز العلمي والطبي، والإعجاز الاقتصادي، والتشريعي، ونحوه. وهذا بلا شكٍّ خيرٌ كلُّه وعلمٌ جدير بالدراسة والتأمل.

قال شيخ الاسلام: «وكونُ القرآن أنه معجزة ليس هو مِن جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا مِن جهة إخباره بالغيب فقط، ولا مِن جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا مِن جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة مِن وجوه متعددة: مِن جهة اللفظ، ومِن جهة النظم، ومِن جهة البلاغة في دلالة اللفظ

(*) طبيب، وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه.

على المعنى، ومِن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك.

ومِن جهة معانيه، التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومِن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومِن جهة ما بين فيه مِن الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة ....، وكل ما ذكره الناس مِن الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له»[1].

الهدايات القرآنية هي أعظم الهدايات وأقومُها، فمن اهتدى بما فيه كان أكملَ الناس علمًا وعملاً وخُلُقًا وسيرة، وقد كان وصفُ الكمال في خُلُق النبي ﷺ أنه امتثل القرآن واهتدى به حتى كان خُلُقه وسجيَّته

الهدايات القرآنية:

إلا أنَّ بابًا مِن أعظم أبواب العلم والخير جديرٌ بأن نلفتَ النظر إلى مزيد من الاهتمام به في حلقات التدبُّر والتفسير والمدارسة القرآنية مما يُسهم في تحقيق شيءٍ من أعظم مقاصد نزول القرآن؛ ألا وهو ما يُعرف بـ «الهدايات القرآنية»، فكتاب الله تعالى جاء بالهدى والنور ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، ومِن أظهر أوصافه أنَّه كتاب هداية: قال تعالى في وصفه: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال في معرض ذكر مقاصد تنزيله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، بل وصَفَه الجنُّ حين استمعوا إليه بأنَّه كتاب هداية فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢].

المراد بالهدايات القرآنية وضوابطها:

الهدايات القرآنية هي أعظم الهدايات وأقومُها ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فمن اهتدى بما فيه كان أكملَ الناس علمًا وعملاً وخُلُقًا وسيرة، وقد كان وصف الكمال في خُلُق النبي ﷺ أنه امتثل القرآن واهتدى به حتى كان سجيَّته؛ وذلك حين سُئلت عائشة ﵂ عن خُلُق النبي ﷺ فقالت للسائل: «ألستَ تقرأ القرآن؟» قال: بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[2].

وتعرّف الهدايات القرآنية بأنها الدلالات المُبَيّنة لما تضمنه القرآن من إرشادات تبيّن الحق من الباطل، وتوصل لكل خير وتمنع من كل شر، من العلم النافع والعمل الصالح وذلك يشمل أبواب الاعتقادات والعبادات والمعاملات، وجوانب الأخلاق والحكم والسياسة والاقتصاد، وسائر الأمور الدينية والدنيوية.

والثمرة من تتبُّع الهدايات القرآنية هو إخراجُ المستهدي بها من الظلمات إلى النور، وهدايتُه إلى التي هي أقوم في الاعتقادات والعبادات والمعاملات، لذا يَشترط أهل العلم لصحة الهدايات شروطًا يجب مراعاتها عند التناوُل والتأمُّل، ومن أهمِّها: أن يحتمِل المعنى المستنبطَ ظاهرُ لفظ القرآن، وألا يخالف صريحَ القرآن وصحيحَ السنة، وأن تُبنى الهداية على معنًى تفسيريٍّ ولغويٍّ صحيح، فلا يخوضُ في الهدايات بلا أهليةٍ وتأصيلٍ كافٍ في اللغة والأصول والتفسير وغيره، وألا يخوض فيما استأثر الله بعلمه، وأن يجرِّد نفسَه من الهوى إلى غيرها من الضوابط والشروط، وإلا فإن المرء سيضل من حيث أراد الهداية، ويزيغ ولا يهتدي![3]

علم التفسير يهتمُّ ببيان معاني القرآن العظيم، أما علم الهدايات فيهتمُّ بما تهدي إليه الآيات من دلالاتٍ وإرشاداتٍ علميةٍ وعَمَلية؛ فالتفسير كالقاعدة والمُقدِّمة، والهدايات غاية، وبدون معرفة التفسير الصحيح لا يُمكن الوصول إلى الهدايات القرآنية الصحيحة

الفرق بين التفسير والهدايات:

علم التفسير يهتمُّ ببيان معاني القرآن العظيم، وهو علمٌ قد استوعب شرح وبيان المعاني القرآنية بما نُقل في كُتُب التفسير عن السلف وبفهم

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية (٥/٤٢٨-٤٢٩).
(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).
(٣) ينظر: تقريب الهدايات القرآنية، لمحمد المطري، ص (٩).

أصحاب القرون المفضَّلة، أما علم الهدايات فيهتم بما تهدي إليه الآيات من دلالاتٍ وإرشاداتٍ عِلميةٍ وعَمَلية؛ فالتفسير كالقاعدة والمقدِّمة، والهدايات غايةٌ، وبدون معرفة التفسير الصحيح لا يُمكن الوصول إلى الهدايات القرآنية الصحيحة، كما أنَّ الخطأ في التفسير يُنتج هداياتٍ خاطئة، وإن كان بابُ التفسير قد اكتمل من حيث الجملة، فإنَّ الفتحَ من الله على عبادِهِ في باب الهدايات والاستنباط لا ينتهي ولا حدَّ له، وهو الذي عناه عليٌّ ﷺ، حينما سئل: هل عندكم كتاب؟ فقال: «لا، إلا كتاب الله، أو فهمٌ أُعطيه رجلٌ مسلم، أو ما في هذه الصحيفة»[١].

أقسام الهدايات:

تقسّم الهدايات القرآنية من حيث الجملة إلى: هداياتٍ جزئيةٍ تفصيلية، وأخرى كليةٍ شاملة:

أولاً: الهدايات الجزئية التفصيلية:

يُراد بالهدايات الجزئية: «الإرشادات المستخرجة بطرقٍ علميةٍ من ألفاظ القرآن وجُمَله وأوجُه قراءته وأساليبه وما يتعلق به من قرائن»[٢] فهي تتناول الجملة أو الآية من القرآن وتتعلق بمعنى تفصيلي جزئي كالهداية إلى حكمٍ شرعي في العبادات أو المعاملات أو إلى خُلُق أو توجيه تربوي خاصٍّ أو هدايةٍ في الاعتقادات أو التصوُّرات المعرفية السلوكية، ويشمل ذلك الهدايات الظاهرة من الآيات التي لا تحتاج إلى تفسيرٍ لوضوحها، أو الهدايات من الآيات التي تحتاج إلى تفسيرٍ حتى يُمكن الاستنباط منها، وللعلماء طرقٌ كثيرةٌ في استخراج الهدايات الجزئية، كالنظر في اختلاف الأقوال في التفسير والقراءات في اللفظة أو الجملة أو الآية، وجمع ما نقله المفسرون عن السلف فيها، والنظر في منطوق الألفاظ ومفهومِها ولازمِها، أو النظر في اختلاف الإعراب؛ إذ به يتغيَّر المعنى فتتنوَّع الهدايات المستفادة منه، كما أنَّ ربط الآيات بالواقع من أكثر ما يُعين على استنباط الهدايات وينمّي فيها المعاني واللطائف، ومن أكثر التفاسير التي عُنيت بالهدايات الجزئية: تفسيرُ تيسير الكريم الرحمن للسعدي رحمه الله تعالى.

ثانيًا: الهدايات الكلية للسور والمقاطع القرآنية:

يُراد بالهدايات الكلية: «الإرشادات المستخرجة بطُرُقٍ علميةٍ من مجموعة آياتٍ في سورة واحدة أو أكثر في معنى يضمُّها»[٣] فهي تهتمُّ بتسليط الضوء على المقاصد الكبرى والمحكمات الشرعية العظمى، وتهتمُّ بالأولويات العليا للقرآن الكريم، وتؤكِّد على الغايات التي لأجلها نزل القرآن مما هو متَّفقٌ عليه بين علماء المسلمين، وتأتي كالقواعد الكلية المحكمة العامة التي يندرج تحتها عشرات الهدايات الجزئية، والتي تجمع بينها بتناسُبٍ وانسجامٍ كامل، وللعلماء طرقٌ كثيرة في استخراج الهدايات الكلية، منها: النظر في سياق الآيات وأسباب النزول، والنظر في أصول الشريعة وكلِّياتها ومقاصد وحِكَم التشريع، والتأمُّل في تناسُب الآيات والسور، ومقاصد السور والمقاطع وغيرها من الطرق والوسائل.

قال ابن عاشور: «إنَّ حقَّ التفسير أن يشتمل على بيانِ أُصول التشريع وكلِّيّاته، فكان بذلك حقيقًا بأن يسمى عِلمًا؛ ولكن المفسِّرين ابتدؤوا بتقصِّي معاني القرآن، فطفحت عليهم وحسرت دون كثرتها قواهم، فانصرفوا عن الاشتغال بانتزاع كليات التشريع إلا في مواضع قليلة»[٤].

قال الشاطبي: «اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، وهي التي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة، كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة، وكان أولها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ثم تبعه ما هو من الأصول العامة؛ كالصلاة، وإنفاق المال وغير ذلك، ونهى عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر»[٥].

الهدايات الجزئية تُستخرَج من ألفاظ القرآن وجُمَله وأوجُه قراءته وأساليبه وما يتعلَّق به من قرائن، وتتعلَّق بمعنى تفصيليٍّ جزئي، بينما تُستخرَج الهدايات الكلية من مجموعة آياتٍ في سورة واحدة أو أكثر في معنى يضمُّها، فهي تهتمُّ بالأولويات العليا للقرآن الكريم، وتؤكِّد على الغايات التي لأجلها نزل

(١) أخرجه البخاري (١١١).
(٢) طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها، للدكتور طه عابدين طه حمد، ص (١٧).
(٣) المرجع السابق (١٨).
(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣/١).
(٥) الموافقات، للشاطبي (٣٣٥/٣).

الفرق بين الهدايات الجزئية والكلية:

١. الهدايات الجزئية تظهر من خلال الألفاظ والجمل والآيات في سياقها القرآني الموضعي مع العناية بأوجه القراءات، والأساليب، والقرائن من أحوال النزول والسياق وغيرها، والهدايات الكلية تظهر من خلال استقراء تلك الهدايات الجزئية في هدايات كلية تجمعُها وتؤلِّف بينها، أو روابط العلاقات الموضوعية بين مجموعة آيات، أو بين السور.

٢. الهدايات الجزئية أوزاعٌ من المعاني، والكليّة نَسَقٌ من البناء شاملٌ كاملٌ في مقصده؛ ولذا يراعى فيها الجمع والضم الذي لا يُراعى في الهداية الجزئية.

٣. الغالب في الهدايات الكلية جوانب المنطوق الظاهر المتكرِّر، والغالب في الهدايات الجزئية جوانب المفهوم المستنبط.

٤. الهدايات الكلية نسبة الاتفاق عليها غالبة، لكثرة أدلَّتها وبراهينها، والهدايات الجزئية أقل نسبةً في درجة الاتفاق عليها، خاصةً ما يُستنبط منها بطُرُقٍ خفية[١].

أقسام الهدايات الكلية:

يمكن تقسيم الهدايات القرآنية الكلية إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

النوع الأول: هداياتٌ كلية تستوعِب السورة الواحدة كاملةً، تجمع بين آياتها وتَلُم ما تفرَّق فيها من هدايات ومعانٍ تفصيلية، يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: «إنَّ السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلامٌ واحدٌ يتعلَّق آخرُهُ بأوّله، وأوّله بآخره، ويترامى بجملته إلى غَرَضٍ واحد، كما تتعلَّق الجُمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لتفهُّم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية»[٢]، فالهداية الكلية من سورة الفاتحة مثلاً هي تحقيق العبودية لله تعالى وذلك من خلال عدَّة هدايات جزئية هي التعريف بالمعبود سبحانه، وبالطريق الموصل إليه وهو الصراط المستقيم، وبيان عاقبة مَن عَبَد الله ومن ضل أو ظلم، وقد أوْلَت بعض كتب التفسير اهتمامًا خاصًّا بمثل هذا النوع من الهدايات كنظم الدرر للبقاعي، والتحرير والتنوير لابن عاشور وغيرهما.

النوع الثاني: هداياتٌ كليةٌ مستخرجةٌ من مجموع آياتٍ متتالية يجمعها عنوانٌ واحدٌ أو قصةٌ واحدةٌ أو حدثٌ أو سبب نزول واحد؛ وتلك الهدايات تُعلم بالنظر في سياق القصةً أو المقطع في السورة؛ فالهداية الكلية من إيراد قصة ذبح البقرة في سورة البقرة مثلاً هي التسليم لله ولأمره، وفي مواطن أخرى تُعلم الهداية الكلية بنصِّ الآيات عليها في ثنايا الحديث أو قبله أو بعده، فالهداية الكلية من إيراد قصة ميلاد المسيح عيسى ابن مريم في سورة آل عمران ومريم هي إثبات بشرية عيسى ونفي الولد عن الله سبحانه وتعالى حيث نصت الآية بعد القصة على هذا المعنى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤-٣٥] وغيرها من المقاطع والقصص القرآنية، والتي هي بحاجة إلى تأمُّلٍ ليظهر مقصدها الأولي العام، وقد تميَّز تفسير الظلال بتقسيم مقاطع السورة الواحدة مع حُسن تقديمه لكلِّ مقطع بما يحقق هذا النوع من الهدايات.

> **«إنَّ السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلامٌ واحدٌ يتعلَّق آخرُهُ بأوّله، وأوّله بآخره، ويترامى بجملته إلى غَرَضٍ واحد، كما تتعلَّق الجُمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لتفهُّم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية»**
>
> **محمد عبد الله دراز**

النوع الثالث: هداياتٌ كلية مُستخرَجة من مجموع آيات متفرقة: وهذه يُتوصل إليها من خلال الاستقراء للموضوع أو المعنى المراد في عددٍ من المواضع المتفرِّقة في القرآن، سواء كانت في الفقه أو العقيدة أو القصص أو الأخلاق وغيرها؛ كتتبُّع صفات المتقين أو المحسنين مثلاً، أو تتبع صفات النفاق والمنافقين واليهود، أو تتبُّع صفة البعث ومشاهد الآخرة والجنة والنار وغيرها من الموضوعات الكبرى التي نزل من أجلها القرآن،

(١) طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها، للدكتور طه عابدين طه حمد، ص (٢٠).
(٢) النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز، ص (١٩٢).

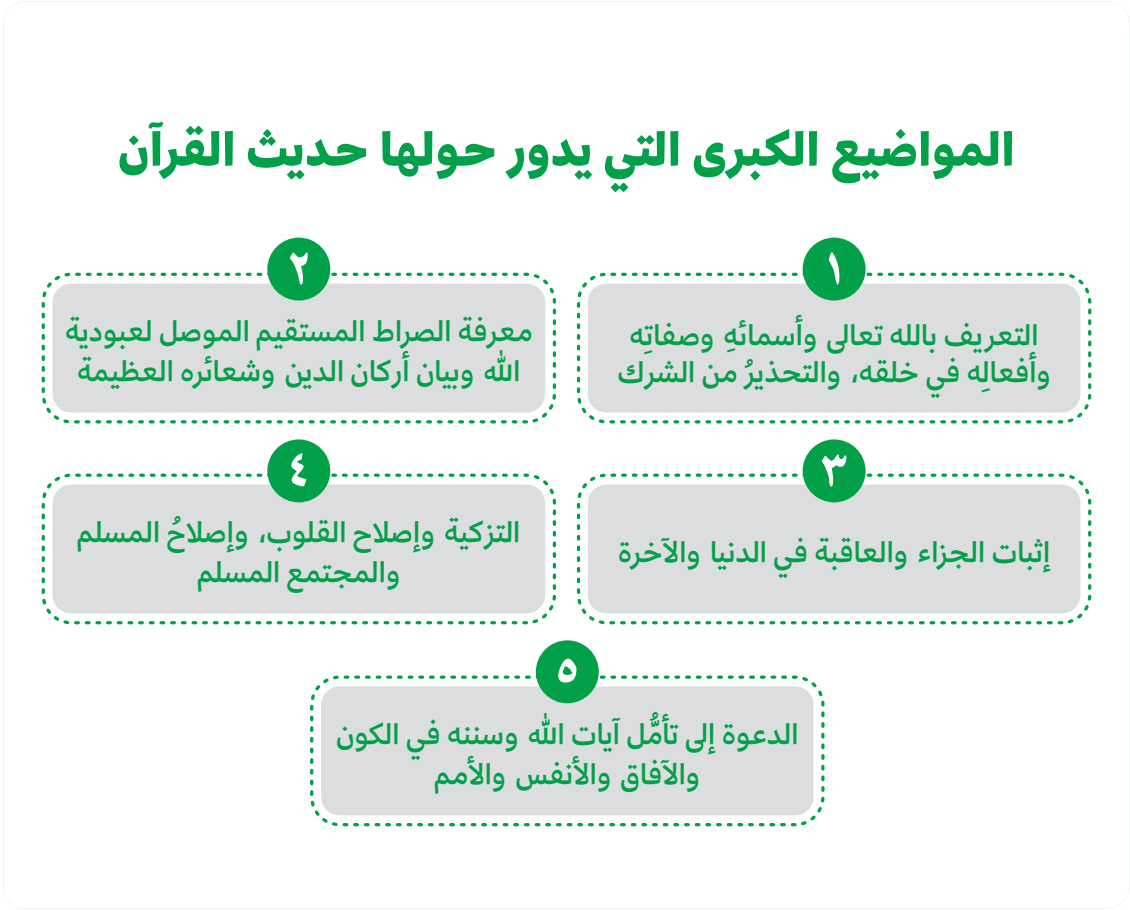

وهذا أشبه ما يكون بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ومن أفضل من خدم هذا النوع من الهدايات: موسوعة التفسير الموضوعي من إعداد مركز تفسير للدراسات القرآنية[١].

المواضيع الكبرى التي يدور حولها حديث القرآن:

مما يُعين الباحثَ في تتبع الهدايات القرآنية الكلية الإلمامُ بالمواضيع الكبرى التي يدور حولها حديث القرآن والتي تُثْنَّى حولها الآيات، وقد اجتهد أهل العلم في تتبُّع تلك الموضوعات، وفي استقراء المقاصد الكبرى للقرآن، من ذلك قول الشاطبي: «وذلك أنه (أي القرآن) محتوٍ من العلوم على ثلاثة أجناس هي المقصود الأول؛ أحدها: معرفة المتوجَّه إليه، وهو الله المعبود سبحانه، والثاني: معرفة كيفية التوجُّه إليه، والثالث: معرفة مآل العبد ليخاف الله به ويرجوه، وهذه الأجناس الثلاثة داخلة تحت جنسٍ واحدٍ هو المقصود، عبَّر عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فالعبادة هي المطلوب الأول»[٢].

وهنا أضع جملةً من المواضيع الكبرى التي يدور حولها حديث القرآن، وهي من المحكمات التي يحسُن التأكيد عليها وتأمُّلها في سياق السور والآيات القرآنية، نوردها هنا على سبيل التمثيل لا الحصر، نفتح بها الباب لمزيد من التأمل في الكليات التي يقرِّرها القرآن:

* **أولها وأهمها:** التعريف بالله جلَّ جلاله وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه في خلقه، وتحقيقُ التوحيد والاستدلالُ له، والتحذيرُ من الشرك وبيانُ بُطلانه وفساده، قال ابن القيم رحمه الله: «بل نقول قولاً كُليًّا: إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمِّنةٌ للتوحيد، شاهدةٌ به، داعيةٌ إليه؛ فإنَّ القرآن: إما خبرٌ عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العِلميُّ الخبري، وإما

(١) طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها، للدكتور طه عابدين طه حمد، ص (٢٥٧) وما بعدها.
(٢) الموافقات، للشاطبي (٤/٢٠٤).

دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلعُ كل ما يُعبَد من دونه، فهو التوحيد الإراديُّ الطلبي، وإما أمرٌ ونهيٌ، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومُكمِّلَاتُه، وإما خبرٌ عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فَعَل بهم في الدنيا، وما يُكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبرٌ عن أهل الشرك، وما فَعَل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلُّ بهم في العقبى من العذاب، فهو خبرٌ عمن خرج عن حُكم التوحيد، فالقرآن كلُّه في التوحيد، وحقوقِه، وجزائه؛ وفي شأن الشرك، وأهله، وجزائهم»[1].

* **ثانيها:** معرفة الصراط المستقيم الموصل لعبودية الله وبيان أركان الدين وشعائره العظام، قال الشاطبي: «الثاني: (أي من مقاصد القرآن) يشتمل على التعريف بأنواع التعبُّدات من العبادات والعادات والمعاملات وما يتبع كلَّ واحدٍ منها من المكمِّلات، وهي أنواع فروض الكفايات، وجامعُها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنظر فيمن يقوم به»[2].

جاء القرآن لبيان الحق وهداية الخلق وتثبيت أهل الإيمان وترقيتهم في مدارج الهداية والعبودية، ويتطلَّب ذلك إدامة النظر في آيات القرآن واستخراج الهدايات منه وتأمُّلَها ومعايشتها، وتصحيح التصورات والاعتقادات على ضوئها، وتمثُّلها في قول المؤمن وعمله وسلوكه وخلقه

* **ثالثها:** إثبات الجزاء والعاقبة في الدنيا والآخرة، وذلك بذكر أخبار الناجين أو الهالكين في الدنيا بالنصر أو الهزيمة، وبيان سنة الله في نصر رسله وأوليائه وأن العاقبة لهم، وبيان سنته في خذلان أعدائهم وهزيمتهم، وإثبات الجزاء في الآخرة بالجنة أو النار، وذكر مشاهد البعث والآخرة، ويدخل في ذلك قصص الأنبياء والرسل وغزوات الرسول ﷺ وسير الأولياء والحُكَماء، وقصص الطغاة والمكذبين وعصاة الرسل والمنافقين للاعتبار بها ولتكون شاهدةً على الجزاء والعاقبة، قال الشاطبي: «والثالث: يدخل في ضمنه النظر في ثلاثة مواطن: الموت وما يليه، ويوم القيامة وما يحويه، والمنزل الذي يستقر فيه، ومكمل هذا الجنس الترغيب والترهيب، ومنه الإخبار عن الناجين والهالكين وأحوالهم، وما أداهم إليه حاصل أعمالهم»[3].

* **رابعها:** التزكية وإصلاح القلوب، وإصلاحُ المسلم والمجتمع المسلم، ويظهر ذلك في آيات الترغيب والترهيب والوعظ والإرشاد والحكمة؛ فالقرآن كلُّه موعظة كما قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وما يتبع ذلك من آيات تُقرِّر وجوب حفظ النفس وتحريمَ قتلها بغير حق، وتحريمَ سائر الفواحش ومنها الزنا، وحفظَ المال وأداءَ الحقوق، والوفاءَ بالعهد، ووجوبَ العدل في الإنفاق والوزن بالقسط وغيره.

* **خامسها:** الدعوة إلى تأمُّل آيات الله في الكون والنفس وسُنن الله في الآفاق والأنفس وفي الأمم والمجتمعات، وذلك بابٌ عظيم من أبواب العِلم يحسُنُ تأمُّله في الكتاب المقروء والكون المنظور؛ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

قال الشاطبي: «وإذا تقرَّر هذا تلخَّص من مجموع العلوم الحاصلة في القرآن اثنا عشر علمًا، وقد حصرها الغزالي في ستة أقسام: ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة، وثلاثة هي توابع ومتممة.

فأمَّا الثلاثة الأول؛ فهي تعريف المدعو إليه، وهو شرح معرفة الله تعالى، ويشتمل على معرفة الذات والصفات والأفعال، وتعريف طريق السلوك إلى الله تعالى على الصراط المستقيم، وذلك بالتحلية بالأخلاق الحميدة، والتزكية عن الأخلاق الذميمة، وتعريف الحال عند الوصول إليه، ويشتمل على ذكر حالي النعيم والعذاب، وما يتقدم ذلك من أحوال القيامة.

(١) مدارج السالكين (٣/٤١٧-٤١٨).
(٢) الموافقات، للشاطبي (٤/٢٠٥).
(٣) المرجع السابق.

> **كلَّما ازداد المرء تأمُّلاً وتفكُّرًا في الهدايات القرآنية ازداد هدايةً ونورًا؛ فهو في تخليةٍ وتحليةٍ مستمرّةٍ متجدِّدة، كما أنَّ نشر تلك الهدايات وتوعية الناس بها مما يزيدُ من أثرها في نفس الداعي والمدعوّ**

وأمَّا الثلاثة الأخر؛ فهي تعريف أحوال المجيبين للدعوة، وذلك قصص الأنبياء والأولياء، وسره الترغيب، وأحوال الناكبين وذلك قصص أعداء الله، وسره الترهيب، والتعريف بمحاجة الكفار بعد حكاية أقوالهم الزائغة، وتشتمل على ذكر الله بما ينزه عنه، وذكر النبي ﷺ بما لا يليق به، وادِّكار عاقبة الطاعة والمعصية، وسره في جَنَبَةِ الباطل التحذير والإفضاح، وفي جنبة الحق التثبيت والإيضاح، والتعريف بعمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الأهبة والزاد، ومعناه محصول ما ذكره الفقهاء في العبادات والعادات والمعاملات والجنايات...»[1].

خاتمة:

جاء القرآن لبيان الحق وهداية الخلق وتثبيت أهل الإيمان وترقيتهم في مدارج الهداية والعبودية، ويتطلَّب ذلك إدامةَ النظر في آيات القرآن واستخراج الهدايات منه وتأمُّلَها ومعايشتها، وتصحيح التصورات والاعتقادات على ضوئها، وتمثُّلها في قول المؤمن وعمله وسلوكه وخلقه، وكلَّما ازداد المرء فيها تأمُّلاً وتفكُّرًا ازداد هدايةً ونورًا؛ فهو في تخليةٍ وتحليةٍ مستمرّةٍ متجدِّدة، كما أنَّ نشر تلك الهدايات وتوعية الناس بها مما يزيدُ من أثرها في نفس الداعي والمدعوّ، ولذلك أدوات ووسائل عديدة من أعظمها وأشدها أثرًا في الناس وعموم المسلمين ما يكون بنشر الوعي العام والإجمالي لمعاني القرآن بمعناها الكلي العام والجزئي التفصيلي، وذلك بقراءة مختصرات التفسير وتدارسها مع الاهتمام بالهدايات القرآنية وتنزيلها على واقع الناس وحياتهم ويومياتهم وأحداثهم.

(١) الموافقات، للشاطبي (٤/٢٠٦-٢٠٧).

حضارة وفكر

تفسير التاريخ وإشكالاته بين المنهج الإسلامي والمناهج البشرية

م. طاهر صيام (*)

التاريخ ليس مجرَّد أحداثٍ ووقائع سابقةٍ مضت وانقضت، وإنَّما هو تسجيلٌ لتفاعل الإنسان مع تلك الوقائع والأحداث وتعامله معها، ولما كان الكونُ يسير وُفق سننٍ وقوانين محكمة، وللنفس البشرية طبائع لا تكاد تخرج عنها؛ فإن أحداث التاريخ قابلة للتشابه والتكرار، ومن هنا ظهرت عدة مناهج في تفسير أحداث التاريخ وكيفية الاستفادة منه، وفي هذا المقال حديث عن تلك المناهج

مدخل:

إنّ دراسة التاريخ من أجلّ العلوم وأنفعها وفيه العظة والاعتبار، وبه يقيس العاقل نفسه على مَن مضى مِن أمثاله، وقد قال الشافعي عنه: «مَن عَلم التاريخ زاد عقله»(١). وذهب السخاوي إلى أنّ: «مَن عرف التاريخ كمن عاش الدهر وجرب الأمور بأسرها»(٢). كما أنّ التاريخ يشكل الذاكرة الحيّة للأمم، ويصوغ هُويتها وشخصيتها.

ما هي موضوعات التاريخ؟

هناك مَن يرى أنّ التاريخ هو قصة المنجزات النوعية التي أحدثها الإنسان، وهو عند فئة يتسع ليشمل المعلومات التي يمكن معرفتها عن كل ما يحويه الكون وقصة الخلق وما جرى فوق البسيطة. فيدرس تطور الزراعة والعوامل التي أدت إلى الحروب ويتتبع الحركات الكبرى كالكشوف الجغرافية وتغير طرق التجارة وموازين القوى، وكيف نشأت الدساتير وانطلقت الثورة الصناعية والحداثة وأثرها في نمط الحياة والأخلاق، وبالتالي ظهرت تخصصات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

مِن هنا نلحظ ظهور مؤرِّخي الحضارات كلوبون وديورانت وتوينبي، وقد سبقهم (ابن خلدون) في مفهومه الاجتماعي والحضاري

(*) باحث في الحضارات والفكر، عمل في جامعة ولاية واشنطن.

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي (٩/١).

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ، للسخاوي، ص (١١١).

لموضوعات التاريخ، فعرّفه بأنه: «خبرٌ عن الاجتماع الإنساني الذي هو عُمْران العالم، وما يَعرِض لذلك العمرانِ مِن الأحوال... وما ينشأ عن ذلكَ مِن المُلك والدولِ ومراتبها... »[١]. أي أن ابن خلدون نظر إلى التاريخ كموضوع جوهره الاجتماع والعمران، وهذه مدرسة قائمة بحد ذاتها، لكن الفارق أنّ ابن خلدون إذ جعل موضوع التاريخ كذلك إلا أنه عالجه مِن خلال التصور الإسلامي للتاريخ كما سيأتي.

وفي العصر الحديث عرّف سيد قطب غرض موضوع التاريخ فقال: «التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان»[٢].

> **«التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان»**
> سيد قطب

جريان التاريخ بين الماضي والحاضر:

اعتبر كروتشيه أنّ التاريخ بأجمعه تاريخٌ معاصر، أي أنه يتألف مِن رؤية الماضي مِن خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله. وهنا يقول كولنجوود: إنّ فلسفة التاريخ لا تهتمُّ بالماضي في ذاته ولا تعتبره ميتًا، بل تدرسه لأنَّ الماضي لا يزال يعيش في الحاضر[٣].

ويذهب إلى مثل ذلك د. محمد العبدة في مقدمة كتابه «أيعيد التاريخ نفسه؟» معتبرًا أنّ فهم الماضي والحاضر يتوقفان على بعضهما البعض، وكما قال ابن خلدون: «الماضي أشبه بالآتي مِن الماء بالماء».

وهكذا يمكننا القول بأن عملية كتابة التاريخ عملية مستمرة على مستوى التعليل والفهم والاتعاظ.

تعريفٌ بمدرستي التاريخ الأساسيتين في الغرب:

هاتان المدرستان ينضوي تحتهما مدارس تفسيرية للتاريخ متباينة. كما أنّ هذا التقسيم ليس حديًا، فهناك تداخل معرفي بين مشارب كل فرعٍ مدرسي.

١. **المدرسة المثالية:** ويمثلها هيجل، وهو صاحب فلسفة تستند إلى أن الفكرة هي قوام التاريخ وأساس الموجودات.

«إن الدراسة الفلسفية للتاريخ عند هيجل تعني «دراسة التاريخ من خلال الفكر؛ لأن التاريخ هو تاريخ الإنسان، وجوهر الإنسان هو الفكر. من هنا نبتت نظرية هيجل، وهي أن تاريخ العالم يتمثل أمامنا بوصفه مسارًا عقليًّا، وأن العقل يسيطر على العالم، وأن مسار التاريخ الإنساني إنما هو مسار تطور الأفكار»[٤].

والمذهب المثالي في تفسير التاريخ يجعل الذات لا الموضوع محور المعرفة. والمثالية تنكر استناد التاريخ إلى الملاحظة، فعمل الباحث الحقيقي في التاريخ هو أن يعيد بعث الماضي ليعيش فيناً عن طريق إعادة الروح إلى الوقائع. كما تنكر حتمية وقائع التاريخ كون الإنسان الذي يصنع التاريخ حرًا. وتقول المثالية بفردية وقائع التاريخ وأنه لا يتعلق بما هو كلي ولا يمكن استخلاص قوانين كلية منها[٥].

لا شكَّ أن تضخيم المدرسة المثالية للذات على حساب الموضوع فيه إشكالٌ وانفصامٌ سافر عن الوقائع فضلاً عن مثالية الفكرة والخيال. وقد أسهمت هذه المدرسة في إذكاء نظرة صوفية رومانسية وذوقية نسبية للتاريخ لا واقعية.

٢. **المدرسة المادية والعلمية الطبيعية:** حفزت مثالية هيجل نفرًا من المؤرخين إلى إعادة الاعتبار للمادة -الوقائع- وإنكار أثر العوامل الروحية والفكرية في تسيير التاريخ، وقد تمثَّلَ هذه الأفكار نفرٌ مِن المؤرخين الذين نظروا إلى

(١) تاريخ ابن خلدون، (٤٦/١).
(٢) في التاريخ فكرة ومنهاج، لسيد قطب، ص (٤١).
(٣) ينظر: البحث في التاريخ، لعاصم دسوقي، ص (١٠).
(٤) فلسفة التاريخ، لمصطفى الشنار، ص (٣٣-٣٤).
(٥) ينظر: في فلسفة التاريخ، لأحمد صبحي، ص (٤١-٥٠).

التاريخ وكأنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي حيث كانت مؤلفاتهم أكثر واقعية فتركوا الجانب الروحي وقصروا همهم على الجانب المادي[١]. كما تمثلها الماركسيون الذين اعتبروا أن التاريخ لا يُسيّره العقل المطلق كما ذهب هيجل، ولا يصنعه الأبطال، وإنما تصنعه عملية تطور اجتماعي في كل أمة من خلال (صراع الطبقات) من أجل السيطرة على وسائل الإنتاج والثروة.

لكن من إشكالات المادية التاريخية ثم الماركسية أنها تجعل أسلوب إنتاج الحاجات المادية أساسًا للتطور، ثم تجعل صراع الطبقات سبيل هذا التطور. وقد أسهمت هذه المدرسة في انتشار الفكر المادي.

جدل حول علمية التاريخ[٢]:

لم يتوقّف الخلاف حول دراسة التاريخ، وهل هو علمٌ أم شيء آخر.

- ذهب وليام جيفونز إلى أنّ التاريخ لا يمكن أن يكون علمًا لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية للمعاينة والاختبار. وبذلك لا يمكن استخلاص قوانين علمية ثابتة من دراسته.
- وقيل: إنَّ استخدام الدراسات الإنسانية لمفهومات كيفية غير مبنية على صيغ كمية مثل مفاهيم المجتمع والقيم والديمقراطية، لا يمكن معاملتها معاملة ألفاظ الحرارة والضوء.
- وذهب بعض (المثاليين) إلى القول بأنَّ التاريخ فن، فالعلم لا يمكن أن يعطينا عن الماضي سوى العظام المعروقة اليابسة، ولا بد من الاستعانة بالخيال وتصوير الكاتب لكي تبعث في تلك العظام الحياة.
- وهناك مِن الفلاسفة كديكارت ونيتشه مَن كان يرى التاريخ عديم الفائدة.

نظرة غلاة العلموية والمادية التاريخية:

يقول جوزيف هورس: «انعكس التطور المنهجي العلمي الغربي على العلوم الإنسانية في (عصر النهضة)، حيث صارت دراسة التاريخ تقوم على جمع أكبر عدد من الوقائع التاريخية بهدف الوصول إلى أحكام كلية أسوة باختبارات العلوم التجريبية، ثم تزويد الإنسان بقوانين تمكنه من فهم الحاضر والمستقبل. وظهر معها الاستقلال عن الدين واستبعاد النظرة الأخروية التي تجعل غاية التاريخ ترتبط بالعالم الآخر، وتربط مسار التاريخ بأفعال الإنسان دون تدخل أي قوة غيبية»[٣].

وبذلك «بدأت تسيطر النظرة إلى التاريخ كعلم طبيعي يقوم على السببية والعلية وصولاً إلى وضع قوانين للتاريخ كما لاحظ كولنجوود»[٤]. وتتجلى النزعة الطبيعية في تفسير التاريخ بالاهتمام بالتعليل، فالتاريخ دون تعليل مجرد رصد وسرد. إلا أن غلو القطعية في السببية تحول إلى إطلاق قوانين أشبه بالفيزياء، بمعنى أن فكرة القانون حلّت محل العلِيّة[٥].

ويصف د. محمد رشاد خليل إشكالات تلك المدرسة المتشعِّبة: «إنَّ هذا الخلط الذي حدث بين البحث العلمي وتراث الغرب الوثني الفلسفي الإلحادي قد جنى على البحث العلمي. ولقد دعا (كلود برنار) إلى التخلُّص من تلكم النظم الفلسفية، وسلاسل العبودية العقلية»[٦].

> **«السُّنن الإلهية هي النظام الرباني لحياة البشر، ومعرفتها تعني: القدرة على تفسير التاريخ تفسيرًا صحيحًا. والأمة التي لا تعرف هذه السُّنن أمةٌ غير مأمونة العثار، وغالبًا ما تُوعَظ بنفسها... وكلُّ أمةٍ تحاول فهم هذا النظام، وتفسير حركة التاريخ من وجهة نظرها المنبثقة من تراثها الفكري والعقائدي»**
>
> د. حسن الحميِّد

(١) ينظر: تلخيص الدسوقي، ص (١٠٤-١٢١).
(٢) ينظر: البحث في التاريخ، لعاصم الدسوقي، ص (٣٠-٣٣) نقلًا عن جوزيف هورس.
(٣) قيمة التاريخ، لجوزيف هورس، ص (٦٥).
(٤) النقد التاريخي، لعبد الرحمن بدوي، ص (٢٣٣-٢٣٨).
(٥) ينظر: في فلسفة التاريخ، لأحمد صبحي، ص (٤١-٥٠).
(٦) دفاع عن التاريخ الإسلامي، ص (٥٥).

التفسير الإسلامي للتاريخ:

نظّم (القرآن العظيم) محطّات التاريخ البشري الكبرى ونشأة الكون؛ حاكيًا قصة الخلق ومُوجزًا أحوال الرسل والرسالات وعواقب الأمم، ثم نَبَّهَ القرآن واعظًا إلى (السنن الاجتماعية والنواميس) التي جَرَت عليها باطِّراد، مُفسِرًا بذلك التاريخ تفسيرًا واقعيًا شموليًا. من هنا درج العلماء كأهل التفاسير على أخذِ حظٍّ وافر من التاريخ، فنجد مثلاً أنّ الطبري وابن كثير والسيوطي قد اشتغلوا بالتاريخ.

يقول د. حسن الحميد مؤكِّدًا أصولية وشمولية منهج التفسير الإسلامي: القرآن مشتملٌ على أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، وينتقل بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص القوانين التي حكمت الظواهر الاجتماعية على امتداد التاريخ. وهذا يتمثَّل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم، وعلى وجود (سنن) و(نواميس) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وتحولها[١].

وتظهر مركزية دراسة التاريخ من خلال السنن الإلهية في القرآن، حيث: «إنّ السنن الإلهية هي النظام الرباني لحياة البشر، ومعرفتها تعني: القدرة على تفسير التاريخ تفسيرًا صحيحًا. والأمة التي لا تعرف هذه السُّنن، أمة غير مأمونة العثار، وغالبًا ما تُوعظ بنفسها... وكل أمة تحاول فهم هذا النظام، وتفسير حركة التاريخ من وجهة نظرها المنبثقة من تراثها الفكري والعقائدي، ومن تصورها للحياة وما بعدها؛ أي من مكوناتها الحضارية وطموحاتها...» [٢]. فيما يقرر د. عبد الحليم عويس: «أنّ الباحثين قد وجدوا في القرآن إطارًا متكاملاً لتفسير التاريخ يتناول الواقعة التاريخية تناولاً تحليليًا، ويتناول الحضارة تناولاً تركيبيًا، ويُقدم من خلال منهجي التحليل والتركيب تفسيرًا للعملية الحضارية في سائر مراحلها...»[٣].

كما ينبغي ملاحظة «أنَّ الرؤية التاريخية ترتبط بالقرآن ارتباطًا وثيقًا... أي سورة قرأت... طالعتك هذه العروض والإشارات المسهبة أو الموجزة، إلى مواقف تاريخية، لا ريب أنها تشكل بمجموعها نسقًا رائعًا ومتكاملاً للتفسير الإسلامي للتاريخ»[٤]. وإلى مثل هذا ذهب عويس وعبد الحميد صدّيقي، وكذلك محمد قطب في كتابه «حول التفسير الإسلامي للتاريخ» بتأكيده على وجود فرق هائل بين التفسير الإسلامي والتفاسير الأخرى في كل شيء[٥].

التفسير الإسلامي والموقف من علمية التاريخ:

١. أَمَّنَ الإسلام الحكم الأخلاقي للتاريخ، واستمراره مع الإنسانية إلى الحياة الآخرة، بما يكشف عن الهدف الأخلاقي الأخروي للأفعال الإنسانية التي تبتهج بالمحتوى الأخلاقي، وبالبشارة الأخروية لصانعيها، وهو أمر لم يدركه دعاة الرؤية المادية والذرائعية.

٢. والحق أن فلسفة التاريخ بمعنى البحث عن العلل والأسباب، أقدم من القرن الثامن عشر، ذلك أن ابن خلدون ميز بين ظاهر وباطن التاريخ في تعريفه: «ففي ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيَّام والدول، والسوابق من القرون الأُوَل... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات دقيق، وعلم بكيفيَّات الوقائع وأسبابها عميق، فهو أصيل في الحكمة عريق»[٦]. وقد ألفَ متخصصون كتبًا أصَّلت لإسلامية التاريخ عند ابن خلدون، مثل عويس: «التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون»، وعماد خليل: «ابن خلدون إسلاميًا»، ومصطفى الشكعة.

٣. مع وجاهة الاعتراضات السابقة على علمية التاريخ، «فمن السهل الرد عليها؛ إذ إنّ الفروق بين مجالي الظواهر الطبيعية والإنسانية هي فروق في درجة التركيب وليست في طبائع الأمور ذاتها، ولا في ارتباط النتائج والأحداث بالعلل والأسباب على غرار العلوم الطبيعية. «ويرى هرنشو أنّ عدم استخلاص قوانين علمية

(١) ينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، لعماد الدين خليل، ص (٨-٩).
(٢) ينظر: سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، لحسن الحميد، ص (٤٨).
(٣) ينظر: تفسير التاريخ علم إسلامي، لعبد الحليم عويس، ص (٥١و١٠٣).
(٤) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص (٧).
(٥) ينظر: سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، لحسن الحميد، ص (٦٠).
(٦) مقدمة ابن خلدون، ص (٢-٤).

من ملامح المنهج الإسلامي في تفسير التاريخ

١. للتاريخ أحكام أخلاقية تستمر مع الإنسانية إلى الحياة الآخرة

٢. ربط القرآن جريان التاريخ بالسنن الإلهية في قصص الأمم بنسق عِلَلِي مطرد

٣. مسار التاريخ يرتبط بأفعال الإنسان التي تخضع للعواقب الإلهية في الدارين

٤. التاريخ يمكن أن يعلل ويبحث في أسبابه

٥. تعليل التاريخ الإنساني يختلف عن القوانين الطبيعية في درجة الدقة فحسب

٦. للعناصر المادية أثرها في تفسير التاريخ، لكنها ليست كل شيء

٧. الاعتبار بالتاريخ مأمور به في القرآن، ويكون بالقياس بين الأحداث المتشابهة.

٨. السُنة الربانية تجري على الأمم، وقد لا يدركها الفرد في حياته القصيرة.

دقيقة من دراسة التاريخ، لا يجرده من صفة العلم»[١].

٤. ونحن إذ ندافع عن مبدأ العِلِيّة في علوم التاريخ، إلا أنه ينبغي التأكيد على اختلاف النموذج الإسلامي مع درجة قطعية وعلمية (قوانين التاريخ) التي استخلصتها المدارس الوضعية جازمة بها رغم جدلية وقائعها وتنزيلاتها وتأويلاتها. فيما يقوم التفسير الإسلامي على مفهوم (الاطراد السُّنني) في فهم جريان وتعليل التاريخ. أمّا الاطراد، فيعني التكرار والتتابع على نهج واحد؛ كلما وُجدت الأسباب، وانتفت الموانع، ولولا الاطراد لم يصح الاعتبار القرآني السنني.

٥. والقرآن الكريم نَظَمَ كل ذلك من خلال منهج عرضه القصصي للسنن الإلهية التي جرت على الأمم والأفراد بنسق عِلَلِي مطرد يتصف بالربانية والعمومية والشمول والدوام من خلال معادلات وقتية حكيمة كالإملاء الرباني والتدافع بين الأمم، ضمن سنن الاستبدال والتغيير والعلو والهلاك وعواقب الظلم والصلاح.

٦. وها هو سيد قطب يضع التفسير الإسلامي والمادي في نِصابَيهما: «والتفسير الإسلامي -بشموليته وصدقه وواقعيته- لا يغفل أثر العناصر المادية -التي يجعلها التفسير المادي كل شيء- ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة... يبرز قدر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغيير الداخلي في الضمائر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي. ولا يغفل عاملاً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة...»[٢].

٧. كما يجلي لنا ابن تيمية المعنى: «وحقيقة الاستدلال (بسنته) وعادته: هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق

(١) البحث في التاريخ، لعاصم دسوقي، ص (٣٣-٣٧).

(٢) في ظلال القرآن (١٠٣٨/٢)، وينظر: دراسات تاريخية، لمحمد موسى الشريف، ص (١٤٤).

بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن. وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل...» [١].

٨. ويُزيل د. السّلمي إشكالاً في مسألة (التحقق الزمني) للسنن بقوله: «والسُنة الربانية قد تستغرق وقتًا طويلاً لكي تُرى متحققة، في حين أن عمر الفرد محدود؛ ولذلك فقد لا يمكنه رؤية السنة متحققة، مما قد يدفعه إلى عدم إدراك السنة، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية لا بد أن تقع، ولكن لمّا كان عمرها أطول من عمر الأفراد، فإنها تُرى متحققة من خلال التاريخ الذي يُثبت أن سنة الله ثابتة...» [٢].

التفسير الأنثروبولوجي والتطوري:

كان أفلاطون وأرسطو يؤمنان بتفوُّق اليونان الفطري. وزعم أرسطو أنَّ هناك جماعاتٍ وُلدت لكي تصبح آلاتٍ لليونان العباقرة. وقد تلقى العالَم الغربي الحديث فكرة التفوق العنصري من منبعه اليوناني والروماني استنادًا إلى الطبيعة، ومن اليهود الشعب المختار استنادًا إلى الآلهة. وزعم الكونت دي جوبينو عام ١٨٥٣ أن الجنس الأشقر الطويل هو الجنس الخلاق.

استحسن الأوروبيون هذا المفهوم وبرَّروا به استعمار القارات وإبادة واضطهاد الزنوج والهنود الحمر، وطبقوا الداروينية البيولوجية والاجتماعية «الانتخاب الطبيعي للأقوى». هنا تبرز مقولة تشيرتشل: «لا يوجد شيء اسمه إبادة للهنود الحمر، لقد حل الجنس الأصلح للبقاء في أمريكا» [٣]. يمثل هذا التفسير تفسيرًا عنصريًا لا أخلاقيًا، كما أنّ الداروينية التطويرية مُنتقدةٌ علميًا بشدة، وثبوتها مدحوضٌ في كثير من المجامع العلمية.

التفسير البيئي الجغرافي:

أحيا توماس باكل فكرة يونانية حينما قرر أن اختلاف المناخ بين الدول يفسر الاختلافات في حركة التاريخ الخاصة بشعوبها. وتأثرًا بهذا الفهم بات بعض المؤرخين يُفسِّرون أحداث التاريخ وتطور المجتمعات بناء على الظروف الجغرافية والبيئية. فمثلاً؛ ساعدت سهول روسيا المتجمدة على إخفاق نابليون وهتلر مما غير وجه التاريخ. ويُذكر أيضًا دور النيل في حياة المصريين وتعلمهم هندسة الري مما دفعهم إلى الوحدة والتعاون، وأنّ ظروف الجغرافيا تحكَّمت بالهجرات، وكيف عَصَمَ إنجلترا موقعُها، وعلاقة نشوء الثورة الصناعية بتوفر المناجم وخطوط التجارة [٤].

والحق أنه لا يمكن إنكار هذه التأثيرات، لكن من إشكالات التفسير الجغرافي أنه يتجاهل الدور الفعال للإنسان ناحية البيئة... فمثلاً استطاع المهاجر الأمريكي تدريجيًا مواجهة البيئة الشديدة والطقس البارد، وتطويع حاجزي جبال الروكي ونهر المسيسيبي اللذين شطرا أمريكا، ومن ثم اتصل واتحد الشرق مع الغرب ولم تنشأ دول منفصلة بسبب هذه الحواجز الجغرافية العظيمة. هذا ويُعتبر توينبي من نقاد هذه المدرسة.

التفسير الاقتصادي الماركسي والمادية التاريخية:

أَسَّسَت الماركسية حتمياتها على المادية التاريخية في التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وهي نظرة أحادية تنكر الروح والغيب، واعتبرت أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل وهي حتمية تفرض نفسها لأنها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه. وإذا فهم الإنسان القوانين، فبإمكانه أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الإنسانية، فمثلاً وضع ماركس قانون تحول الكم إلى الكيف في جميع الظواهر، وعند حدوث هذا التحول تقع الثورة [٥].

والحق أنّ العامل الاقتصادي هو من أكثر العوامل فعالية خصوصًا منذ الثورة الصناعية. كما أنّ ليس كل من قال بهذا الرأي ماركسيًا، بل امتد التفسير الاقتصادي ليشمل تفسير الحروب الصليبية وقيام الحركة البروتستنتية والثورة الأمريكية والفرنسية. لكن حصرية التفسير الاقتصادي رُفضت بسبب تداخل العوامل الاجتماعية والدينية والسياسية مع الاقتصادية وتبادل التأثيرات فيما بينها. كما تظهر

(١) النبوات، لابن تيمية (٩٦٣/٢).
(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، لمحمد السلمي، ص (٦١)، وكذلك عقد د. حسن الحميد في المرجع السابق مبحثًا لشرح هذا المفهوم بعنوان: «الفرق بين سنن الله في الأفراد وسننه في الأمم»، ص (٣٢-٤٨).
(٣) ينظر: التاريخ، لجوردون شايلد، ص (٩٠-٩٨).
(٤) ينظر: الناس والطبيعة، دراسة في التاريخ البورجوازي، لكودويل، ص (٣١-٤٠).
(٥) ينظر: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، لفتحي عثمان، ص (١٧-١٨).

لنا سورة قريش الحاجة لعامل الأمن إلى جانب الاقتصاد.

تفسيرات المستشرقين الفيلولوجية للتراث الإسلامي:

هذه المدرسة تعنى بالتحليل الثقافي للنصوص اللغوية. وهي تحت مظلة دراسات اللغات السامية تقوم بتحقيق الوثائق والنصوص التراثية والتاريخية، ثم تتعسف ردّ مضامينها إلى ثقافات وحضارات أخرى. استخدمت الفيلولوجيا تقنية التوفيد «لإعادة التراث الإسلامي إلى ثقافات وافدة سابقة، بمعنى أنّ المستشرقين نظروا إلى التراث الإسلامي باعتباره مزيجًا من عناصر موجودة قبل الإسلام ولم يقم المسلمون إلا بتركيبها وخلطها»[١].

يقول إبراهيم السكران: «لما شاهد المستشرقون عظمة الفقه الإسلامي، زعموا أنه مأخوذ من الفلسفة اليونانية والقانون الروماني... وادعى جولدزهير أن الأحاديث النبوية فيها جمل أُخذت من التوراة والإنجيل وحِكم الفرس والهنود... وذهب بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» إلى ذات الفِرية بخصوص القرآن»[٢]. كما انبثقت مدرسة المراجعين التشكيكية عن هذه المدرسة، لتدعي أن كل ما لدى العرب منحول.

موريس بوكاي يدحض فيلولوجيا المستشرقين:

طبيب التشريح موريس كان عالمًا في اللغات والآثار، ويُعدّ نموذجًا لشخصية الباحث العلمي المنهجي[٣].

تعلَّم بوكاي العربية في السوربون ليدرس القرآن. وكان يجيد العبرية والهيروغليفية. ولبوكاي معرفة علمية بالكتب اليهودية والمسيحية والمصريات. عكف في مصر مع فريقه وحدد محنط فرعون مُثبتًا علميًا موته بالغرق من خلال تحليل نسبة الأملاح. ثم كشف عن شخصية هامان وصدَّق رواية القرآن. ثم أَلَّف بوكاي كتابه الشهير «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث» في مقارنة الأديان. تُرجم الكتاب إلى ١٧ لغة أعلن فيه أنّ رواية القرآن لقصة بني إسرائيل دقيقة، وأنّ القرآن وحده مِن عند الله، لأنه لم يأت فيه ما يعارض حقائق العلم.

مذهب التسامح العلمي في التفسير:

لم تستطع أي مدرسة وضعية أن تجعل من نظريتها الأساس الصحيح أو الوحيد لتفسير التاريخ والأحداث. ورغم اندراج تلك المدارس تحت المذهبين المثالي والمادي المتناقضين، فإن كثيرًا من الباحثين يجمع بينهما بصورة انتقائية.

من هنا ظهرت (المدرسة التسامحية) مستندة على أن طبيعة الظواهر الاجتماعية يصعب تفسيرها بنظرية واحدة أو سبب مباشر. ورأت الخلاص (بالتفسير الإحصائي والتمثيل النسبي) لمختلف العوامل والتفسيرات. إلا أن هذا يعيدنا إلى إشكالية التفسير الرياضي المحض.

> **يؤسس النموذج المعرفي الإسلامي علاقةً إصلاحية تقوم على التراحم والتكامل بين سادة الصحابة وضعافهم كأبي بكر وبلال، وعلى الدعوة والتواصل والأخلاق مع الشعوب، وعلى التدافع مع الخصوم بصيرورة حضارية لا تدمر وتقتلع الوجود، بل هي أقرب إلى استيعابهم كما حصل مع الفرس والتتار**

الالتقاط اللحظي مقابل الاستقراء:

يُلاحَظُ أنَّ ابنَ خلدون بنى تعليله للتاريخ على استقراء القوانين المسيطرة على سير التاريخ، والإلمام بأكبر عددٍ من العوامل التي تؤثر في تطوّر المجتمع، فأحداث التاريخ متشابكة الأسباب.

الالتقاط اللحظي لحدث ما يوصلنا إلى فهم مُجتزأ. يظهر مثل ذلك في كتاب «أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية» للدكتور محمد الشنقيطي، حتى تخال الفاطميين والشيعة قسماء للسنة في دفع الصليبيين وفي كل شيء. وكذلك يظهر في الدعوى بأنّ صلاح الدين أطاح بالفاطميين لأسباب سياسية دون مذهبية، والتي لا تصمد عند استقراء مؤلفات القضاة آنذاك كابن واصل وابن شداد والقاضي الفاضل ثم العماد الأصفهاني، بالإضافة إلى منهج المدارس النظامية تحت السلاجقة والزنكيين وصلاح الدين لعقودٍ

(١) التأويل الحداثي للتراث، لإبراهيم السكران، ص (٢٤).
(٢) المرجع السابق، ص (١٣٣-١٣٩) بتصرف.
(٣) ينظر: وقفات مع المسيري، نموذج الباحث المجتهد، لطاهر صيام، رؤيا للدراسات، على الشبكة العنكبوتية.

ودورها في مواجهة الفكر الفاطمي. فقد أغلق صلاح الدين الأزهر الذي بناه الفاطميُّون، ومنعَ تدريس المذهب الفاطمي، وعزلَ قضاته وأبطل أعيادهم.

الإسلام وإشكال الصراع في تفسيرات التاريخ:

في مقابل ماركس الذي اعتبر أن التاريخ هو تاريخ (الصراع) الطبقي المحرك الأساس للتاريخ، تمحور كل من هيجل حول صراع السادة والعبيد، والداروينية الاجتماعية حول صراع الانتخاب والبقاء، وهنتنجتون حول صراع الحضارات، وبيرنار لويس حول مبدأ الصدم والتفتيت للشرق. وبالتالي تمركز غالبهم حول نموذج معرفي يعتنق الصراع. وعلى النقيض من ذلك، يؤسس النموذج المعرفي الإسلامي علاقة إصلاحية تقوم على التراحم والتكامل بين سادة الصحابة وضعافهم كأبي بكر وبلال، وعلى الدعوة والتواصل والأخلاق مع الشعوب: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وعلى التدافع مع الخصوم بصيرورة حضارية لا تدمر وتقتلع الوجود، بل هي أقرب إلى استيعابهم كما حصل مع الفرس والتتار.

> **بناء المستقبل القوي العزيز، لا يقوم إلا على أساس فهم سليم للماضي ليكونَ تاريخُنا مدرسةً عظيمةً لإلهام الأجيال، تمدُّهم بالتجارب والعزيمة والثقة من أجل صناعة المستقبل المزهر**

خُطىً إلى المستقبل:

هي دعوة حثيثة إلى تناول التاريخ الإسلامي من مصادره الصحيحة روايةً ودرايةً بعقول واعية مدربة على الفهم السُنني والتفسير القرآني ومنهج البحث العلمي المتزن. فإنّ بناء مستقبلٍ قوي عزيز، لا يقوم إلا على أساس فهم سليم للماضي ليكونَ تاريخنا مدرسة عظيمة لإلهام الأجيال، تمدهم بالتجارب والعزيمة والثقة من أجل صناعة المستقبل المزهر... لعلنا بمثل هذا نرد على توصية بيرنار لويس ببناء ماضٍ مشرقي جديد، ليقطف الغرب مستقبلاً مجيدًا.

تأصيل

المقالة الفائزة بالمركز **الأول** في مسابقة: (أقلام موهوبة الموجهة لطلاب الجامعات في المناطق المحررة)

كيف نتذوق الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم؟

أ. محمد غياث إستانبولي (*)

من مفاخر هذه الأمة امتلاكها لكتاب بلغ الغاية في الفصاحة والكمال في البلاغة، قال عنه ألدُّ أعدائه: «إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»، لكن منا من يقرؤه ولا يتذوق بلاغته، مع أننا نؤمن به ونردد آياته صباح مساء. تحاول هذه المقالة تلمّس الطريق إلى تذوق هذه البلاغة واستشعارها

المقدمة:

لا يختلف أهل العلم أن أعظم معجزة للنبي عليه الصلاة والسلام هي القرآن الكريم، فالقرآن كتاب الله الخالد الذي تحدى به الإنس والجن، فعجزوا عن الإتيان بنظيره ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثم عَجِزَ العربُ البُلغاء عن معارضة القرآن مع توفُّر الدوافع الشديدة لمعارضة القرآن؛ لإثبات ما زعموه من كونه مفترىً من عند محمد عليه الصلاة والسلام، ولشدَّة عداوتهم له، ومع ذلك وقفوا أمام تحدي القرآن عاجزين.

وقد تميَّز القرآن بوجوهٍ بلاغيةٍ عظيمة وهي: «حسنُ تأليفه والتئامُ كلمه وفصاحتُه ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادةَ العرب»[١] كما أنَّ «من إعجازه: صورةُ نظمه العجيب، والأسلوبُ الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدٌ مماثلةَ شيء منه»[٢]، فكتاب الله فيه أعلى درجات البيان، وأسمى أساليب البلاغة، وأعظم مراتب الفصاحة، وأعذب أنواع الكلم، وقد ألَّف علماؤنا الأجلة رحمهم الله كتبًا جليلةً حول إعجاز القرآن اللغوي ومن أشهرها:

(*) طالب في مرحلة الماجستير في مجال التفسير وعلوم القرآن في جامعة شام.

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٢٥٨/١).

(٢) المصدر السابق (٢٦٤/١).

- النكت في إعجاز القرآن، لعلي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٦).
- بيان إعجاز القرآن، لحَمْدِ بن سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨).
- إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت: ٤٠٣).
- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجُرجاني (ت: ٤٧١).
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١).
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦).
- النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧).
- التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب (ت: ١٣٨٥).
- البيان في إعجاز القرآن، لصلاح عبد الفتاح الخالدي (ت: ١٤٤٣).

وليس المراد هنا إحصاء الكتب المؤلفة في هذا الباب، فهذا مما يضيق عنه المقام، إنما المراد بيان كيف يمكن أن يتذوق المرء الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم؟

> **عَجِزَ العربُ البُلغاء عن معارضة القرآن مع توفّر الدوافع الشديدة لمعارضة القرآن؛ لإثبات ما زعموه من كونه مفترىً من عند محمد عليه الصلاة والسلام، ولشدَّة عداوتهم له، ومع ذلك وقفوا أمام تحدي القرآن عاجزين**

كيف نتذوق الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم؟

للقرآن تأثيرٌ على النفوس والقلوب، سواءٌ أكان المرء عالمًا باللغة والفصاحة أم لا؟ وهذا أحد أوجه أعجازه كما وضّحه الخطابي فقال: «في إعجاز القرآن وجه آخر ....، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمعَ خلص له إلى القلب من اللذّة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور»[١].

وهناك أمور عدة تعين المرء على تذوق الإعجاز البلاغي للقرآن وهي:

١/ أن يفهم كلام الله حسب أساليب العرب:

الذين نزل القرآن بلسانهم، وإلا حاد الإنسان عن الصواب وضل طريق الهدى والرشاد، فلا يمكن أن يفهم كلام الله حسب ما استحدث في العصور اللاحقة، وإلى هذا نبه الإمام الشافعي بقوله: «وإنما بدأت بما وصفتُ، من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره: لأنه لا يعلم مِن إيضاح جُمَل عِلْم الكتاب أحد جهل سَعَة لسان العرب، وكثرةَ وجوهه، وجماعَ معانيه، وتفرقَها. ومن عَلِمه انتفَتْ عنه الشُّبَه التي دخلَتْ على من جهل لسانَها»[٢]. كما أن الإمام الشاطبي بيّن في الموافقات أنه ليس في القرآن والسنة شيء من أساليب الأعاجم، وأن بعض الناس يأخذون دلالات القرآن والسنة حسب ما تفهمه عقولهم وليس حسب أساليب العرب مما يؤدي إلى فساد عريض وخروج عن مراد الله سبحانه وتعالى[٣].

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فكلمة «الناس» في كلا الموضعين لفظ عام أريد به الخاص، ففي الموضع الأول المقصود بالناس هم النفر الأربعة الذين قالوا ذلك لرسول الله ﷺ وأصحابه، و«الناس» في الموضع الثاني هم: أبو سفيان ومن معه من المشركين[٤].

٢/ تدبر كتاب الله تعالى وتكرار التأمُّل في آياته، وألفاظه ومعانيه:

قال ابن القيم: «ورأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكُّر وتدبُّر آيات الله، حيث تستولي على الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه، وصار له التصرُّف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكنًا وهو يباري الريح»[٥]، وفي الرسالة التبوكية

(١) بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص (٧٠).
(٢) الرسالة، للشافعي، ص (١٣٣-١٣٤).
(٣) ينظر: الموافقات، للشاطبي (٣٩/١).
(٤) ينظر: الرسالة، ص (٥٨-٦٠).
(٥) الرسالة التبوكية، لابن القيم، ص (٦٣).

لابن القيم العجب العجاب من ثمار التدبر في إدراك عظمة القرآن وقوة إعجازه.

من أهم السبل لتذوُّق بلاغة القرآن: دوام التفكُّر فيه وتدبُّر آيات الله، حتى تستولي على الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من القلب، وتربع على كرسيه، فحينئذٍ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكنًا وهو يباري الريح

٣/ معرفة ألفاظ القرآن:

أصولها وجذورها واشتقاقها ومعانيها «فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللَّبِن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه... فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزُبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم»[١]. ومن أفضل ما أُلِّف في هذا الموضوع كتاب: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢).

وهاك نموذجًا مما ذكره في مفرداته: كلمة (أبى) تعني: «شدة الامتناع، فكل إباء امتناع وليس كل امتناع إباءً»[٢]، فقوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢] يدل على أن كيد الكفار إلى ضلال وسعيهم إلى تباب لأنَّ الله أبى إلا نصر دينه وإتمام نوره، وإذا قرأت قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] علمت حينها لمَ استحق هذا العقاب والتوبيخ؛ فقد امتنع أشد الامتناع عن الاستجابة لأمر الله.

٤/ دراسة علم النحو:

فلا يمكن للإنسان أن يعي القرآن ويدرك جميل سبكه، ولطيف رصفه، ما لم يكن عالمًا بالنحو والإعراب، فرب خطأ في حركة أحال المعنى القرآني الإيماني إلى معنى فاسد كما روي «أنه قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فقال: من يقرئني شيئًا مما أنزل الله على محمد ﷺ؟ فأقرأه رجلٌ سورة براءة، فقال: [أن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه] بالجر، فقال الأعرابي: أوَقد برئ الله من رسوله! إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه! فبلغ عمر ﷺ مقالة الأعرابي، ... ثم قال للأعرابي: ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣] فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منه. فأمر عمر ﷺ ألا يقرئ القرآن إلا عالمٌ باللغة»[٣].

ومن أهمية علم النحو: أن اللفظة الواحدة في الآية قد تحتمل وجوهًا من الإعراب، وكل وجه منها يؤدي معنى مغايرًا لسواه، وهذا لا شك يساعد على تذوق إعجاز القرآن.

٥/ دراسة علوم البيان والبلاغة:

فلا يمكن للمرء تذوُّق الإعجاز اللغوي للقرآن وهو خِلوٌ من علوم البلاغة والبيان.

قال الباقلاني: «إن من كان من أهل اللسان العربي -إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرف اللغة، وما يعدونه فصيحًا بليغًا بارعًا من غيره- فهو كالأعجمي: في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل ما بيَّنَّا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء، فأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع، ويتجاوز حدود القدرة فليس يخفى عليه إعجاز القرآن»[٤].

وللوصول لذلك لا بدَّ من الاطِّلاع على عُيون النصوص العربية البليغة ومُداومة النظر فيها حتى تصير البلاغة مَلَكَةً، وفي ذلك يقول الشيخ رشيد رضا: «ولكن لا بد مع ذلك من قراءة الكثير من منظوم الكلام البليغ ومنثوره، واستظهار بعضه مع فهمه... فمعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يُحكِمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتي حظًا عظيمًا من مختار كلام البلغاء المنظوم

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص (٦).
(٢) المصدر السابق، ص (٥٨).
(٣) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لكمال الدين الأنباري، ص (١٩-٢٠).
(٤) إعجاز القرآن، للباقلاني، ص (١١٣).

والمنثور من مرسل ومسجوع، حتى صار ملكة له وذوقًا»[١]، والمقصود بهذا الذوق أنه «قوة يُقدَّر بها العمل الفني، وهو استعداد فطري يقدر به صاحبه على تقدير الجمال والاستمتاع به، والذوق في أصله موهبة من الله، لكن يمكن للمرء ترقيته، وهو مزيج من العقل والعاطفة والحس والشعور»[٢].

ومن أفضل الكتب المصنفة التي تنمِّي الذوق إضافة إلى ما سبق ذكره: كتابا الإمام عبد القاهر الجرجاني (أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز)، فهما من خير ما يعين على تذوق بلاغة القرآن، ولا ننسى الإشارة إلى كتاب (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب؛ فهو معينٌ على إدراك جمال القرآن، وبديع تصويره، وسمو مشاهده، ورحابة معانيه، وعذوبة وقع حروفه، وقوة إقناعه.

> **«لتذوق بلاغة القرآن لا بد من قراءة الكثير من منظوم الكلام البليغ ومنثوره، فمعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يُحكِمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتي حظًا عظيمًا من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور من مرسل ومسجوع، حتى صار مَلَكة له وذوقًا»**
>
> محمد رشيد رضا

٦/ الاهتمام بالقراءات القرآنية وعلم توجيهها:

فبين هذه القراءات اختلافٌ في الأصول[٣] والفرش[٤]، والذي يعنينا هنا هو الفرش وتوجيهه دون الأصول، فالكلمة الواحدة قد تقرأ على أوجه مختلفة، وقد يكون بينها تغاير في المعنى، فتجد اللفظة الواحدة تعطيك معاني مختلفة، والذي يبين لنا ذلك علم توجيه القراءات أو علم علل القراءات، والمقصود بعلم توجيه القراءات: «بيان وجوه القراءات القرآنية، واتفاقها مع قواعد النحو واللغة، ومعرفة مستندها اللغوي تحقيقًا للشرط المعروف (موافقة اللغة العربية ولو بوجه)، كما يهدف علم التوجيه إلى ردّ الاعتراضات والانتقادات التي يُوردها بعض النحاة واللغويين والمفسرين على بعض وجوه القراءات»[٥]. وبالمثال يتضح المقال: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤]. فكلمة (السلام) قرئت بحذف الألف (السلم) وهذه قراءة نافع وابن عامر وحمزة وأبي جعفر وخلف، وقرئت بإثباتها (السلام) وهي قراءة الباقين[٦].

والفرق بينها أن السلم هو «الاستسلام وإعطاء المقادة من غير امتناع» وأما السلام فهو «التحية، ودليله أن رجلاً سلم عليهم فقتلوه لأنهم قدروا أنه فعل ذلك خوفًا منهم»[٧].

وقد اعتنى العلماء بهذه الفن وصنفوا فيه عددًا من الأسفار[٨].

٧/ العناية بسبب اختيار اللفظة القرآنية دون غيرها في موقعها:

فكل لفظة في القرآن لها دور بلاغي في مكانها لا تؤديه أي كلمة أخرى، كما قال ابن عطية: «كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[٩]. وقريب من هذا كان كلام الزركشي: «مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافات المقامات وذكر في كل موضع ما يلائمه ووضع الألفاظ في كل موضع ما يليق به وإن كانت مترادفة حتى لو أبدل واحد منها بالآخر ذهبت تلك الطلاوة وفاتت تلك الحلاوة»[١٠]، وأما الخطابي

(١) تفسير المنار، لرشيد رضا (١٦٨/١).
(٢) البيان في إعجاز القرآن، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، ص (٩٨).
(٣) الأصول: هي القواعد الكلية التي تنطبق على ما تحتها من الجزئيات، مثل الإدغام والإمالة وغير ذلك، ينظر: مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، لإبراهيم بن سعيد بن حمد الدوسري، ص (٢٧).
(٤) الفرش: ما حكمه مقصور على مسائل معينة ولم يطرد على سَنن واحد، فهو ما قلَّ دوره من الحروف المختلف فيها بين القراء، وسمي فرشًا لانتشاره، فكأنه انفرش. (المصدر السابق، ص: ٨٦).
(٥) مقدمات في علم القراءات، لمحمد أحمد مفلح القضاة ورفاقه، ص (٢٠١).
(٦) ينظر: التسهيل لقراءات التنزيل بهامش القرآن الكريم، محمد فهد خاروف، ص (٩٣).
(٧) الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، ص (١٢٦).
(٨) وأشهر المصنفات في هذا الفن: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (ت:٣٧٠)، الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي (ت: ٣٧٧)، حجة القراءات لابن زنجلة (ت: ٤٠٣ تقريبًا)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب (ت: ٤٣٧)، الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم (ت: ٥٦٥).
(٩) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لعبد الحق بن عطية الأندلسي، (٥٢/١).
(١٠) البرهان في علوم القرآن، لبرهان الدين الزركشي (١١٨/٢).

فيعتبر أن هذا هو عمود البلاغة: «ثم اعلم أنَّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوعٍ من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصَّ الأشكَلَ به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة»[1].

ومن الأمثلة ما ذكره الخطابي في قول الله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] عوضًا عن (افترسه الذئب) فقال: «إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، وأصل الفَرْس دقُّ العنق، والقوم إنما ادَّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظمًا، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفَرس لا يعطي تمام هذا المعنى، لم يصح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل»[2].

على من رام تذوق بلاغة القرآن أن يهتمَّ بالقراءات القرآنية وعلم توجيهها؛ فالكلمة الواحدة قد تقرأ على أوجه مختلفة، وقد يكون بينها تغاير في المعنى، فتجد اللفظة الواحدة تعطيك معاني مختلفة، والذي يبين لنا ذلك علم توجيه القراءات أو علم علل القراءات

٨/ تدقيق النظر وإعمال الفكر في اختلاف الألفاظ:

وذلك بين الآيات المتشابهة، فقد تكرَّرت بعض القصص في القرآن، أو تكرر بعض معاني الآيات واختلفت ألفاظها أو اختلف ترتيب ألفاظها، وما ذلك إلا لأن مقتضى البلاغة يتطلَّب ذلك، فعلى المرء أن يتنبه إلى هذه الفروق الدقيقة، وقد أجاد في هذا الفن أبو جعفر الغرناطي في كتابه: مِلاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل.

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] وقال في سورة الأعراف: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] فلماذا ذكر الله في الموضع الأول فعل (انفجرت) وفي الموضع الثاني فعل (انبجست)؟

والجواب: أنَّ الانبجاس أول الانفجار والانفجار بعده وغايته، وابتداء الطلب كان من بني إسرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] ثم كان طلب موسى من الله كما في البقرة، فناسب ذلك ذكر الانبجاس في الأعراف وذكر الانفجار في البقرة[3].

٩/ التنبه إلى علم المناسبات في القرآن:

وهو أنواع كثيرة منها: مناسبة السورة للسورة قبلها، ومناسبة مطلع السورة لخاتمتها، ومناسبة مطلعها لخاتمة السورة قبلها، ومناسبة الآيات بعضها لبعض، ومناسبة اختتام السورة ببعض أسماء الله تعالى دون غيرها، ومناسبة تكرار الألفاظ، ومناسبة جزاء المؤمنين لحسناتهم، وجزاء الكافرين لذنوبهم، وقد استوعب هذه المناسبات جميعًا وأفاض فيها الإمام البقاعي في تفسيره الفذ «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، ولنذكر نماذج من علم المناسبات تبين عظم أهمية هذا العلم في تذوق بلاغة القرآن:

فقد افتتح الله سورة الملك بقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] واختتمها بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] فما هي المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها؟

يجيب عن ذلك البقاعي بقوله: «ولما افتتح سبحانه السورة بعظيم بركته وتمام قدرته وتفرده في مملكته، ودل على ذلك بتفرده بالإماتة والإحياء، ختم بمثل ذلك بالماء الذي وجوده هو سبب للحياة وعدمه سبب للموت»[4].

ومن التناسب بين الآيات:

ما المناسبة بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وبين

(١) بيان إعجاز القرآن، للخطابي، ص (٢٩).
(٢) المصدر السابق، ص (٤١).
(٣) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأبي جعفر الغرناطي (٤٠/١).
(٤) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لبرهان الدين البقاعي (٢٧١/٢٠).

الآية التي تليها؟ وهي قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

والجواب: «ولما كانت الخشية من الأفعال الباطنة، وكان كل أحد يدعي أنه يخشى الله، قال مخوفًا لهم بعلمه نادبًا إلى مراقبته لئلا يغتروا بحلمه... ﴿وَأَسِرُّوا﴾»[١].

وأنواع المناسبات كثيرة جدًا، إنما المقصود أن نبيّن أهمية هذا العلم في إدراك الإعجاز اللغوي في القرآن، فكل سورة وكل آية مرصوفة في مكانها بحكمة بالغة، وإهمال هذا العلم سيفوِّت على القارئ وجوهًا بلاغية عظيمة؛ إذ هذا العلم «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه [أي القرآن] وهو سر البلاغة، لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال»[٢]. وتفسير البقاعي المسمَّى بـ«نظم الدرر في تناسب الآي والسور» أفضل ما أُلِّف في هذا الباب.

لعلم المناسبات في القرآن أهمية كبيرة في إدراك إعجازه اللغوي، فكل سورة وكل آية مرصوفة في مكانها بحكمة بالغة، وإهمال هذا العلم سيفوِّت على القارئ وجوهًا بلاغيةً عظيمة؛ وهذا العلم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن وهو سر البلاغة

١٠/ تجنب منهج التفسير الباطني للقرآن الكريم:

فإنَّ الله تعالى أنزل كتابه بيانًا للناس، والباطنية يجعلون للكلام باطنًا لا ارتباط له بالظاهر، فيُحيلون بذلك كلام الله من البيان والإيضاح إلى الإلغاز والتعمية، فيفقدونه بذلك إعجازه وبلاغته وفصاحته[٣].

قال الرازي: «القانون أنَّه يجبُ حملُ كلِّ لفظٍ وردَ في القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالةٌ عقليةٌ قطعيةٌ توجب الانصراف عنه، وليت من لم يعرف شيئًا لم يخض فيه»[٤].

ولنذكر مثالاً يتضح به جناية المنهج الباطني على إعجاز القرآن وبلاغته وهو تفسير الرافضة لقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢] فقد فسروا البحرين بأنهما علي وفاطمة، وأن البرزخ بينهما هو رسول الله ﷺ، وأن اللؤلؤ والمرجان هما الحسن والحسين[٥]. فانظر كيف يبطل هذا التفسير الباطني بيان القرآن وإعجازه وفصاحته، ويجعل التفسير خاضعًا للأهواء والأمزجة[٦].

على المرء أن يتزوَّد من العلم ويُكرِّر النظر في كلام الله مع سؤال الله والتضرع إليه حتى تنفتح له أبواب العلم والمعرفة، وأن يحذر من الغرور والتطاول على أهل العلم، بل عليه أن يتواضع لله ويسأله من فضله

وبعد:

فهذه عشرة أمور تعين على تذوُّق الإعجاز البلاغي للقرآن، وكلما كان نصيب المرء منها أوفى زاد ذلك في إدراكه لوجوه الإعجاز، وكلما نقص منها نصيبه قلَّ إدراكه لوجوه الإعجاز، ويجب على الإنسان أن لا يتعجَّل الثمرة، بل يتروَّى ويكثر من مطالعة كلام أهل العلم في هذا الشأن حتى تتشرَّبه روحُه ويغدو ساريًا كدمه في عروقِه، ويكرر النظر في كلام الله مع سؤال الله والتضرع إليه حتى تنفتح له أبواب العلم والمعرفة، وأن يحذر من الغرور والتطاول على أهل العلم إذا أدرك بعض وجوه إعجاز القرآن فإن ذلك مفتاح الخذلان، وأول طريق البوار، بل عليه أن يتواضع لله ويسأله المزيد من فضله، وأن يعلم حق أهل العلم ومقدارهم وأننا بالنسبة إليهم كالبقل حول أصول النخل السامقات كما أثر ذلك عن الإمام أبي عمرو بن العلاء رحمه الله.

---

(١) المصدر السابق (٢٠/٢٤٢).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، لبرهان الدين البقاعي (١/٥).
(٣) ينظر: فضائح الباطنية، لمحمد بن محمد الغزالي، ص (٥٢).
(٤) مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر الرازي (٢٢/١٠).
(٥) ينظر: بحار الأنوار للمجلسي (٣٧/٦٤) نقلًا عن المكتبة الشيعية على الشبكة، وراجع ما ذكره شيخ الإسلام في مقدمة في أصول التفسير في هذا الشأن (ص: ٣٦).
(٦) ويدخل في هذا مختلف التفاسير البدعية التي تخرج بآيات القرآن عن معانيها إلى معان أخرى موهومة، باطنة مزعومة، أو مغايرة ...، ومن أهم معالم التفسير البدعي: إهمال التفسير بالمأثور وفهم السلف، وإهمال اللغة في التفسير، والتفسير بالهوى، والتفسير الباطني، وبعض الاتجاهات المعاصرة مثل اعتبار القرآن نصًا مفتوحًا يستطيع كل واحد أن يفهم منه ما يريد.

قضايا معاصرة

المقالة الفائزة بالمركز **الثاني** في مسابقة: (أقلام موهوبة الموجهة لطلاب الجامعات في المناطق المحررة)

حقوق المرأة وظاهرة النسوية

أ. علاء الدين النصار (*)

تتابعت في هذا العصر إسقاطات منتجات الحضارة الأوروبية على مجتمعاتنا، كالعلمانية والاشتراكية والرأسمالية، وفي الجانب الاجتماعي طالعتنا حركات تحرير المرأة والنسوية التي نشأت من ظروف النظرة الدونية للمرأة في الثقافة الأوروبية، ثم أرادوا تعميمها في بلادنا بالرغم من المكانة الخاصة التي تمتعت بها المرأة في المجتمع الإسلامي، وهذه المقالة تلقي الضوء على ظاهرة الحركة النسوية

يقال في عرف المجتمعات إنَّ المرأة هي نصف المجتمع، والأَولى القول بأن المرأة هي المجتمع كله، نصفه بالتعداد، ونصفه الآخر بالتربية والإعداد، فهي المحضن الأول في تنشئة العلماء وتجهيز الحُماة وبناء الأسر الصالحة وزرع الأخلاق الفاضلة، ولهذا يَجِدُّ أعداء الفضيلة ودعاة الرذيلة إلى إسقاط هذا الحصن الحصين، لعلمهم بأنَّه أحدُ المداخل الرئيسة لتقويض قوة المسلمين وزعزعة صفوفهم.

لقد وجدت شبهات الباطل آذانًا صاغيةً وقلوبًا فارغةً تسمع وتتلقف كل ما يلقى إليها، لذلك لزم على كل من كشف الله جل جلاله له زور هذه الدعوات وترهل هذه الشبهات أن يبين للناس بطلانها ويعرفهم فسادها، قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقد ظهرت في العقود الماضية حركة تسمى بـ (النِّسوية) تطالب بحقوق المرأة ابتداءً، فبين مدافع عنها، وناقد لها، ومؤطر لها في إطار الشريعة، ومحاربٍ ومحذرٍ منها ومن دعاتها.

وهنا عدة تساؤلات:

١. هل حقوق المرأة ناقصة حتى تحتاج إلى من يحددها ويطالب لها بها؟

٢. هل تحتاج المرأة إلى النسوية أو غيرها من أجل إثبات حقوقٍ لها خارجةٍ عمّا أقرته الشريعة الإسلامية؟

٣. ما هو مكان النِّسوية الحقيقي بين الداعي إليها والناقد لها؟

(*) طالب في مرحلة الماجستير في الاقتصاد الإسلامي في جامعة شام.

المرأة هي المجتمع كله، نصفه بالتعداد، ونصفه الآخر بالتربية والإعداد، فهي المحضن الأول في تنشئة العلماء وتجهيز الحُماة وبناء الأسر الصالحة وزرع الأخلاق الفاضلة، ولهذا يَجِدُّ أعداء الفضيلة إلى إسقاط هذا الحصن الحصين، لعلمهم بأنَّه أحدُ المداخل الرئيسة لتقويض قوة المسلمين وزعزعة صفوفهم

حقوق المرأة في الإسلام:

عند الحديث عن حقوق المرأة فإننا نذكر شيئًا من الحقوق التي أثبتتها لها الشريعة الإسلامية، والتي لا يمكن الإحاطة بها في مجلدات فضلاً عن سطور.

وقد كثر الكلام حول هذا الباب الكبير، وتعدَّدت فيه المؤلفات والبرامج، ويمكن ذكر بعض هذه الحقوق:

أولاً: حق المرأة على نفسها:

أول حقٍّ للمرأة على نفسها هو أن تعرف نفسها، ما هي المرأة، وما هي مكانتها ووظيفتها في هذه الحياة؟.

تعريف المرأة عادةً ما يكون: هي أنثى الإنسان البالغة، ثم نقف عند هذا الحدّ، ولكن هذا التعريف تعريف وصفي يصف شكلها ووظيفتها البيولوجية، ولا يصف حقيقتها، فإذا رجعنا إلى التعريف ذاته نجد (هي إنسان) فما هو الإنسان؟

أول آية نزلت على رسول الله ﷺ هي قوله جل جلاله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢] فالإنسان إنما هو خَلْق الخالق وصنعة الصانع، والمصنوع يتحرك وينقاد بتوجيه صانعه بلا شك، سواءٌ علم الحكمة أم لم يعلمها، وهذا الوصف لا ينطبق إلا على صفة واحدة ألا وهي العبودية، إذن المرأة في حقيقتها تتصف بالعبودية لله جل جلاله، وهي تساوي الرجل تمامًا في هذا الوصف، فإذا عَرَفتْ ذلك عَرَفتْ ذاتها ومكانتها ووظيفتها في هذه الحياة.

ثانيًا: حق المرأة على الرجل:

الرجل بالنسبة للمرأة إما أن يكون أبًا أو زوجًا أو ولدًا، وقد كتب الله جل جلاله على كل واحد من هؤلاء حقًّا يجب عليه تأديته للمرأة.

فعلى أبيها: حقوق متعددة تجاه ابنته، بل وأوْلت الشريعة لتربية البنات أهمية زائدة على تربية البنين، جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (من ابتُلِيَ مِن البناتِ بشيءٍ، فأحسنَ صحبَتهنَّ، كُنَّ له سِترًا مِن النار)[١] وابتلي أي: اخْتُبِرَ.

ولم تأذن الشريعة للأب أن يُزوِّج ابنته بمن يشاء دون النظر إلى كفاءة الخاطب ودينه، بل جعلت إذن المرأة شرطًا في صحة العقد، فهذه الصحابية خنساء بنت خدام الأنصارية زوَّجها أبوها وهي ثيِّبٌ فكرهت ذلك فأتتِ النبيَّ ﷺ فردَّ نكاحَه[٢].

وعلى زوجها: بعد انتقالها إليه من بيت أبيها، ستجد نفسها محفوفة بجملة من الحقوق التي ترعاها، فأُلزم الزوج بالعشرة بالمعروف والإحسان إليها، قال الله جل جلاله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. كما حفظت الشريعة للمرأة حقها في العفاف، وقد اتفق الفقهاء على أن للمرأة مطالبة الحاكم بفسخ النكاح إذا ثبتت عُنّة الرجل[٣]، وإن امتنع الرجل من وطء الزوجة لغير عذرٍ ضرب الحاكم له أمد الإيلاء[٤].

وحفظت أيضًا حق المرأة في حفظ سرّها وسترها في حال إتيانها، فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: (إنَّ من أشرِّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة: الرجلُ يُفضي إلى امرأته وتُفضي إليه، ثم ينشر سِرّها)[٥].

وعلى ولدها: أعظم حقوق المرأة، فزيادةً على ما جاء في حق الوالدين جميعًا في قوله جل جلاله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] بين رسول الله ﷺ عظيم مكانة الأم ومنزلتها وحقها في عدة مواطن فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أُمُّك، قال: ثم من؟ قال: أُمُّك، قال: ثم من؟ قال: أُمُّك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك)[٦].

(١) أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥١٣٨).
(٣) ينظر: التمهيد، لابن عبد البر (٢٢٦/١٣). العُنّة بضم العين وتشديد النون، والرجل العِنِّين: الذي لا يستطيع إتيان النساء.
(٤) ينظر: المغني، لابن قدامة (١٠٨/٥).
(٥) أخرجه مسلم (١٤٣٧).
(٦) أخرجه البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨).

بل وقدّم برها على صلاة التطوع كما جاء في قصة العابد جريج[1].

والحقوق على الأبناء كثيرة منها: البر والإحسان والنفقة عليها إذا فقدت المعيل، وخفض الصوت في الحديث معها، وانتقاء الألفاظ الحسنة، وذِكرها بخير، وعدم مخاصمتها ولا مقاطعتها، ورعايتها في مرضها، والدعاء لها بعد وفاتها، وغيرها الكثير.

الإنسان خَلْق الخالق وصنعة الصانع، والمصنوع يتحرَّك وينقاد بتوجيه صانعه بلا شك، سواءٌ علم الحكمة أم لم يعلمها، وهذا الوصف لا ينطبق إلا على صفة واحدة ألا وهي العبودية، والمرأة إذ تتصف بالعبودية لله جل جلاله، فهي تساوي الرجل تمامًا في هذا الوصف

ثالثًا: حق المرأة على المجتمع:

ينبغي للمجتمع ألا يُضيع حقوق المرأة التي هي جزءٌ لا ينفكُّ عنه؛ فهي نصفه بالعدد ونصفه بالتربية والتنشئة كما أسلفت، لذلك كان واجبًا عليه أن يحفظ لها حقوقها، في التعليم والتعلم، ورعايتها والإنفاق عليها إن فقدت الأهل، والتدخل في حل مشكلاتها كالحكمين في النزاع إن حصل بين الزوجين، ومنع الظلم عنها، وقَبول معاملاتها المالية، وحفظ كرامتها، وقد منعت الشريعة عادات مجتمعية كانت سائدة في صور ممقوتة للزواج، كالشغار والمتعة والاستبضاع وغيرها[2].

اعتبار ذوات العلم والفضل:

ومن أهم ما ينبغي للمجتمع: اعتبار فتاويها والأخذ بها إن كانت من أهل الفتوى، فالمرأة العالمة الفقيهة العاملة بما علمت لها مكانتها وفضلها الذي ينبغي أن يُبرِزه المجتمع ويحفظه لها.

رابعًا: حق المرأة على ولاة الأمر:

وهو حقٌ عظيم برعايتها وحمايتها، فأما رعايتها فتشمل النفقة عليها وتفقدها وتلبية احتياجاتها وتعليمها.

وأما الحماية فبأخذ حقها وحفظ نفسها، فإنَّ «جمهور العلماء، وجماعة أئمة الفتيا بالأمصار متفقون على أن الرجل يُقتل بالمرأة كما تُقتل المرأة به»[3]، لقوله جل جلاله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، وحفظ عرضها من أن يُنتهك أو يُنال بسوء، فمن قذف المحصنات الطاهرات فقد حدّ الله جل جلاله له حدًّا وفرض عقوبةً رادعةً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤] جلد ثمانين وإسقاط العدالة فلا تقبل شهادته في شيء، وهو في زمرة الفاسقين، فأي صيانة للمرأة مثل صيانة الشريعة الإلـٰهية؟ فاللهم لك الحمد على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة.

للمرأة حقوق كثيرة أقرتها الشريعة منذ ١٤ قرناً ضمن بنيان محكم من التشريعات المفصلة، بما يحفظ مكانة المرأة وكرامتها من الابتذال والاستغلال، وفاقت في عدالتها ما تنادي به كل حركات تحرير المرأة اليوم

دعوى النِّسوية:

الحديث عن النسوية «يقتضي بالضرورة إلقاء الضوء على تاريخ نشوء وتطور هذه المطالبات النسوية في بلاد الغرب الأساسية، فرنسا وبريطانيا وأمريكا كنماذج عملية»[4].

في دراسة سريعة لتاريخ نشوء وتطور ظاهرة النِّسوية نجد أنها بدأت مجرد دعوة إلى تحرر المرأة من قيود الظلم والطغيان.

«ففي أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٠-١٧٩٣م): بدايات الأمر كان في الوقوف بوجه الظلم الحقيقي الواقع على المرأة في العالم الغربي، وكان هذا في فرنسا وبريطانيا.

وفي القرن التاسع عشر: النضال والمؤلفات لنصرة القضية في بريطانيا وفرنسا وأمريكا.

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٤٣٦).
(٢) ينظر: صحيح البخاري (٥١٢٧).
(٣) الاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار، لابن عبد البر (١٦٨/٨).
(٤) حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، لمثنى أمين الكردستاني، ص (٢٩٩).

حقوق المرأة في الإسلام

حق المرأة على الرجل

على أبيها:
حسن التربية والتنشئة وتزويجها بمن يكرمها من الصالحين.

على زوجها:
العشرة بالمعروف والإحسان إليها، وإعفافها.

على ولدها:
برها والإحسان إليها وتفقدها وحسن المصاحبة.

حق المرأة على المجتمع

1. حفظ حقوقها في التعليم والتعلم، والرعاية وحفظ الكرامة ومنع الظلم.
2. اعتبار ذوات العلم والفضل وإبرازهن وحفظ مكانتهن.

حق المرأة على ولاة الأمر

1. توفير ما يضمن لها عيشاً كريماً وتفقدها وتلبية احتياجاتها وتعليمها.
2. حمايتها وضمان حصولها على حقوقها.

حق المرأة على نفسها

أن تعرف نفسها، ومكانتها ووظيفتها في الحياة.

النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٠-١٩٢٠م): دخلت المرأة في السياسة في بريطانيا وأمريكا وفنلندا والنرويج والاتحاد السوفيتي. وفي (١٩٤٥م) في فرنسا.

(١٩٦٨م) بدأت المرحلة الثانية في بريطانيا وفرنسا، وهي مرحلة الدعوة إلى المساواة في كل شيء.

وأيضًا كانت الدول والحكومات تسعى جاهدةً للقضاء على هذه الحركات والثورات والدعوات، حتى قتلوا وأعدموا عددًا من النساء الداعيات إلى هذا الفكر»[١].

وصلت النسوية إلى شكلها المعاصر وهي المساواة بين المرأة والرجل في كل شيء، وهنا ينبغي توصيف هذا الحال الذي وصلت إليه، والتي يظهر فيها جليًا «إلغاء كل الفوارق بينهما في الأدوار وفي التشريعات، فتلغى القوامة، وينتهي ارتباط الأمومة بالمرأة، ويتقاسم الزوجان كل المهام والأدوار والسلطات داخل الأسرة، فتغدو الأسرة بلا قائد، أو تصبح سفينة ذات قائدين يتنازعان السلطة، فيكونان معاول هدم لا أعمدة بناء»[٢].

بعد عام ١٩٦٨م تبلورت النسوية المعاصرة لتأخذ شكل النسوية العلمانية، وبدأت الانتشار في البلاد العربية والإسلامية وامتدادًا لهذا الانتشار وشيوعه بين المسلمات، خرجت لنا محاولات لأسلمة هذه النسوية، والتي أصبحت تسمى «النسوية الإسلامية»، وفي حقيقتها ليست إسلامية، وإنما وهِمَ أصحابها، ولم يعطوا المرأة حقها، فعجبٌ ممن يعتقد فيها خيرًا، وأخطر ما فيها هدم الأسرة التي تحفظ كرامة المرأة وتلبي حاجاتها النفسية والعاطفية والمادية والبيولوجية، وتفكيك المجتمع الذي بتماسكه يحمي المرأة، وبالتالي ضياع المرأة.

الحركة النسوية اليوم تدعو لإلغاء الفوارق بين الرجل والمرأة في الأدوار والتشريعات، فتلغى القوامة، وينتهي ارتباط الأمومة بالمرأة، ويتقاسم الزوجان كل المهام والأدوار والسلطات داخل الأسرة، فتغدو الأسرة بلا قائد، أو تصبح سفينة ذات قائدين يتنازعان السلطة، فيكونان معاول هدم لا أعمدة بناء

(١) يُنظر: حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، ص (٣٠١ إلى ٣٢٠).
(٢) المواثيق الدولية وأثرها في هدم الأسرة، د. كاميليا حلمي، ص (٦٣٦).

النسوية حركة «مدنية» ترفض تدخل الدين في ميدان الحركة النضالية، فهي حركة علمانية، وفي الوقت نفسه فإنَّ النسوية العلمانية لا ترضى أن تُتهم بالإلحاد، وتعتبر الحداثة هي الركيزة الأساسية في الخطاب النسوي العلماني، وبالتالي تصل إلى اعتبار الإنسان مركز الحياة ومرجع الأخلاق والأحكام مع إنكار الغيبيات

وللوقوف على تفاصيل أوسع حول الحركة النسوية، وامتدادها "النسوية الإسلامية" نذكر ما يتعلّق بالتأسيس والمفاهيم والأفكار والمرجعية والخطط لكلّ منهما:

أولاً: النسوية العلمانية/ مرحلة التأسيس:

عند الحديث عن مرحلة التأسيس نحتاج أن نبين شيئين مهمين، وهي التواريخ البارزة في المرحلة، وأهم الكتّاب خلالها.

«أهم الكتّاب العرب: مي زيادة، نوال السعداوي، فاطمة المرنيسي، رجاء بن سلامة، فريدة النقاش، أما أبرز التواريخ: «الانتساب للنسوية ١٩٢٣م، بداية التنظير على يد النخب النسائية في السبعينات، الخلط بين موجتي النسوية (الثانية وما بعد النسوية) بداية القرن الحدي والعشرين»[١].

أهم المفاهيم والأفكار:

النسوية حركة مدنية ترفض تدخل الدين في ميدان الحركة النضالية، فهي حركة علمانية، وفي الوقت نفسه فإن النسوية العلمانية لا ترضى أن تُتهم بالإلحاد، وتعتبر الحداثة[٢] هي الركيزة الأساسية في الخطاب النسوي العلماني، وبالتالي فتح المجال للإنسانوية[٣].

المستند والمرجع:

هي المرجعية «المدنية» البشرية البعيدة عن نور الوحي، والممثلة بقيم منظمة حقوق الإنسان وأسسها الفكرية، وأهم ثوابت المدنية مبدأ الحرية والذي يعني الحرية المطلقة التي يقررها الفرد بنفسه، ومبدأ المساواة والتي تعني المساواة في الحقوق والقانون فقط لا الجوانب الفعلية، وينشأ عن ذلك المساواة المطلقة، والتي في حقيقتها تخالف العدل[٤].

خطط النسوية العلمانية في التغيير:

كل حركة تنشأ يكون لها خطة عملية تسير عليها من أجل الوصول إلى الأهداف التي وضعها المنظرون لهذه الحركة، وأهم ما تسير عليه النسوية العلمانية:

١. اعتبار المرجع القانوني وأحكامه وتقديمه على أحكام الشريعة.

٢. التأسيس لنهضة نسائية تستند للمرجعية «المدنية» وحدها بعيدًا عن الرجوع للخالق العليم بما خلق، والقضاء على المؤسسات الدينية.

وقد نتج عن النسوية العلمانية نشر مفهوم الجندر، والذي يقصد به حرية تحديد النوع، أي أن الإنسان حر في تحديد نوعه بغض النظر عن الطبيعة البيولوجية التي ولد عليها، وكانت قد أسست لهذه الأفكار الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار والتي قررت في كتابها (الجنس الآخر) عبارة خطيرة جدًا ترجمتها (لا نولد امرأةً وإنما نصير امرأة) أي أن المرأة لا تولد أنثى وإنما تصير أنثى بسبب التربية المجتمعية[٥].

وكمثال على خطط النسوية وجهودها في تغيير المجتمع في المناطق المحررة من سوريا نجد التالي:

أ. تستغل المنظمات الغربية المشبوهة حالة الفقر التي أصبحت صفة للشريحة الأكبر من الناس في المناطق المحررة وخصوصًا مجتمع المخيمات.

ب. المؤسسات النسوية تركز على الأرامل والطالبات في الجامعات وتستقطب العديد منهن من خلال أنشطة خدمية أو تعليمية.

ج. زرع الأفكار يكون مقرونًا بالمساعدات المالية والإغاثية والتوظيف في بعض الأحيان.

(١) يراجع: قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر، لملاك الجهني، ص (٣٥ إلى ٣٩).

(٢) الحداثة نبتة غربية خبيثة، وهي مذهب فكري لم يكن وليد لحظة أو مصادفة، وإنما مذهب أنتجته تحولات فكرية متعاقبة، فبعد سقوط الكنيسة من واقع الناس وقلوبهم، نشأت في الغرب مذاهب إلحادية تحاول أن تفسر الكون والإنسان والحياة تفسيرًا ماديًا بعيدًا عن تفسير الدين وأطروحات الكنيسة، وكلما فشل مذهب انتقل الناس إلى غيره. www.islamweb.net

(٣) الإنسانوية: تعني اعتبار الإنسان هو مركز الحياة ومرجع الأخلاق والأحكام ولا وجود للغيبيات، ولا حتى إلٰه خالق للكون.

(٤) المرجع السابق، ص (٥٠ إلى ٦٠).

(٥) مستفاد من محاضرة مصورة للدكتور البشير عصام المراكشي حول قضايا النسوية بعنوان: النسوية، الحلقة الأولى.

د. تعمل هذه المنظمات على توظيف من لا علاقة له بالثورة، وتحرص على استقطاب المرتزقة وصغار السن وتستبعد أصحاب القضية ليسهل توظيفهم في مخططاتها.

هـ. الدعوة إلى تمكين المرأة واستقلاليتها التامة عن الرجل، ومحاربة الزواج المبكر[١].

ذكرت في السطور السابقة أبرز دعاة النسوية العلمانية بشكل عام، أما في المجتمع السوري فقد ظهرت عدة شخصيات يمكن التعرف عليها من خلال الأفكار التي يتم بثها بين النساء في سوريا وذلك عن طريق التوعية والفهم الحقيقي لمآلات هذه الأفكار والاعتبار بالمجتمعات الأخرى التي انهارت أخلاقيًا بسبب هؤلاء، والجهة الأولى المعنية بالاهتمام والبحث هم أئمة وخطباء المساجد بأعيانهم، لأن هذه المهمة لا يكفي أن يعلمها البعض ويكتبوا فيها بعيدًا عن الانخراط في صفوف المجتمع.

ثانيًا: النسوية «الإسلامية»/ مرحلة التأسيس:

أهم الكُتَّاب في هذا الموضوع: الإيرانية أفسانة نجم أبادي، ثم آمنة ودود، وزينة أنور، وأميمة أبو بكر، وزيبا مير حسيني، وكان لبعضهم مقالات في مجلة فرزانة الحكيم، ومقالات في مجلة زنان، ومن بعض مؤلفاتهم: سنوات الشدة سنوات النمو، واتجاهات وتيارات في البحث الإسلامي المعاصر، والنسوية والمنظور الإسلامي.

لم يكن لأصحاب هذا التوجه تاريخ قديم تأسسوا عليه، وإنما تبلور الخطاب النسوي «الإسلامي» في بداية تسعينيات القرن الماضي، بدأ في إيران ثم خرج إلى باقي الدول، ولم يكن هذا المصطلح «النسوية الإسلامية» علَمًا على خطاباتهم حتى مؤتمر اليونسكو حول النسوية «الإسلامية» في ١٩/٩/٢٠٠٦م[٢].

أهم المفاهيم والأفكار:

الوعي بالتمييز ضد المرأة وهيمنة الرجل على المرأة، والعمل على «الاجتهاد الإصلاحي» في الإسلام لتطبيق العدالة والمساواة في الإسلام في الحقوق السياسية والاجتماعية، والسعي لتوثيق الصلة بين المسلِمات الساعيات إلى ذلك.

تدور رؤية النسويات «الإسلاميات» مع الحداثة، إلا أنها حداثة توفيقية تحاول المزج بين التمسك بمبادئ الإسلام والانفتاح على القيم العالمية، مع التركيز على مسألة حرية المعتقدات وعدم التمييز بين أصحابها[٣].

خطط النسوية «الإسلامية» في التغيير:

النسويات «الإسلاميات» لا يعتبرن القرآن منتقصًا من حقوق المرأة، ولكنهن يرين أن الخطأ هو الاجتهادات السابقة في تفسير آيات القرآن والموروث العقدي والفقهي، لذلك وضعن معالم الطريق الذي يحقق مصلحة المرأة على النحو:

١. إعادة قراءة النص الديني، وتقديم الاجتهادات النسوية البديلة.

٢. المطالبة بتعديلات قانونية تتضمن الاجتهادات النسوية.

نتائج وتوصيات:

أ. حفظ الإسلام حقوق المرأة في مختلف نواحي حياتها.

ب. فرض الله تعالى على مختلف شرائح المسلمين الحفاظ على المرأة وحمايتها وحفظ حقوقها.

ج. نشأت النسوية في مجتمعات غير إسلامية بسبب الظلم الذي وقع على المرأة في تلك المجتمعات.

د. النسوية العلمانية خطر على الأسرة والمجتمع المسلم، لأن المرأة هي أساس التربية والأسرة، وإفسادها إفساد للأسر.

هـ. تسعى النسوية لنشر العديد من الأفكار الخطيرة التي تمثل بذوراً للكفر والإلحاد والخروج من الدين.

و. النسوية «الإسلامية» تسير في طريق غير شرعية وهي وإن كانت لا تسعى إلى إفساد الأسرة قصدًا ولكن طريقها غير سوي، وإن لم يقصدوا ذلك.

ز. ينبغي للباحثين التعمق أكثر في ثنايا هذه الحركات ودراسة شبهاتها تفنيدها والرد عليها.

(١) من أبرز المنظمات الداعية لهذه الأفكار: تستقل - كش ملك - اليوم التالي - الشبكة النسوية السورية - شبكة الصحفيات السوريات - قطرة - الرواد - تاء متحررة. من محاضرات للدكتور أسامة جورية في قضايا النسوية.

(٢) يراجع: قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر، لملاك الجهني، من ص (٦٧ إلى ٧٢).

(٣) يراجع: المرجع السابق، ص (٧٢ إلى ٧٨).

المقالة الفائزة بالمركز **الثالث** في مسابقة: (أقلام موهوبة الموجهة لطلاب الجامعات في المناطق المحررة)

الشّباب وضياع الهُويّة

أ. عبد المنعم العلي (*)

الضعف الذي أصاب أمة الإسلام في القرون الأخيرة له مظاهر كثيرة، من أهمها فُقدان الشباب لملامح الهوية الجامعة التي يعتزُّ بها المسلم ويتمسَّك بها، ويتبع ذلك محاكاتهم لأفكار وثقافات غريبة عنهم، لا ينتمون إليها، وهي لا تعترف بهم، وهذه المقالة تتحدث عن الهوية الإسلامية ومظاهر ضعفها لدى الشباب وأسباب هذا الضعف وسبل تعزيزها وبنائها

مدخل:

الحديث عن الهُويّة ليس حديثًا عابرًا، أو ترفًا فكريًا، بل يتعلَّق بإثبات وجود الأفراد والمجتمعات والدول من عدمه، ولأهميته الكبرى تُنفق الحكومات الجهود العظيمة، والأموال الطائلة للتمسك بها، والإعلاء من شأنها وتعزيز مناعتها في مواجهة أيِّ خطر يتهدَّدها، فهي محطُّ تميّزها عن الغير كما تميّزُ البصمة صاحبها عن غيره.

وإذا تعلَّق الأمر بهُويّة الشّباب؛ فالموضوع يتطلَّب مزيدًا من العناية من قبل الآباء والباحثين والدّعاة والمصلحين، بل من قبل الشّباب أنفسهم، لأنّهم قلبُ كلّ أُمّة وطاقتها الدفّاقة التي تصلح بقوتهم وعلمهم، وتضعف بضعفهم وجهلهم.

وثمة إجماعٌ من قبل الشّعوب عامة، ونخبها الفكرية خاصة على إيلاء الهُويّة مكانة متقدمة في سلم أولوياتهم، ووضعوا لها المرتكزات الأساسية بناء على ثقافة كل أُمّة بما تحويه من ديانة وعلوم ومعارف أنتجتها تلك الأُمّة عبر تاريخها.

المقصود بالهوية:

لو أردنا أنْ نعرف الهُويّة تعريفًا عامًا لقلنا: إنها مجموعة من العقائد والمبادئ والخصائص والترميزات التي تجعل أُمّة ما تشّعر بمغايرتها للأمم الأخرى[1].

(*) طالب في مرحلة الدكتوراه في جامعة حلب الحرة، قسم التأهيل والتخصص.

(1) تجديد الوعي، لعبد الكريم بكار، ص (٧٠).

وبالنسبة للأشخاص: فلكلِّ إنسانٍ شخصيتُه المميّزة له، فله نسقُه القِيمي ومعتقداته وعاداته السلوكيّة وميوله واتجاهاته وثقافته[١].

وتشكِّل العقيدة الإسلاميّة مرتكز الهُويّة الأول للمسلم بما تحمله من معاني الإيمان بالله والبراءة مما عداه، وهي أيضًا شريعته التي تحدِّد له إطار حياته، وسلوكه، وهي تمثّلُ الإرث العظيم بكلّ مكوناته ومراحله الذي أنتجته أُمّة الإسلام عبر مسيرة تاريخها، إيمانًا به وافتخارًا ودفاعًا عنه، والسّعي إلى الحفاظ عليه، بل نشره.

كما أنّ اللغة العربيّة تُعد من العناصر المهمَّة في تكوين هويَّتنا، فبها كُتِب تاريخُنا وثقافتُنا، وبها ارتقَتْ حضارتُنا وبها أُنزل قرآننا، فلا يمكن أنْ تثبُت هُويّة الشّباب بدونها.

> **تشكِّل العقيدة الإسلاميّة مرتكز الهُويّة الأول للمسلم بما تحمله من معاني الإيمان بالله والبراءة مما عَداه، وهي شريعته التي تحدِّد له إطار حياته وسلوكه، وتمثّلُ الإرث العظيم بكلّ مكوناته ومراحله الذي أنتجته أُمّة الإسلام عبر مسيرة تاريخها**

ضعف الهوية وأسبابه:

قد بدأ ضعف الهُويّة عمومًا بعد غياب سلطان الإسلام عن الأرض وبدأت تتسلل القوانين الوضعية بما تحمله من مفاهيم وتصورات للدين والإله والحياة، وبدأت دوائر الهُويّة الإسلامية تضيق كلما ابتعد النّاس عن دينهم بوصفه منهج حياة، وبدأت المفارقة واضحة بين ماضٍ فيه القوّة والوحدة في الغايات والأهداف والآمال والآلام، وبين واقع فيه الضّعف والتّشتت وتدخل إليه مؤثرات الأمم الأخرى دون مقاومة كبيرة، وتزيد من المسافة الفاصلة بين ذلك الماضي القوي والحاضر الضعيف.

وقد كان لغياب سلطان الإسلام عن الأرض أثر بالغ الأهمية في ضعف الهُويّة واندراس مظاهرها[٢]، وقد تفاوت ذلك الضّعف بين البلدان تبعًا لطبيعة السّلطات الحاكمة فيها، وبدأت مظاهر هذا الضياع ملحوظة بين الشّباب خاصة.

مظاهر ضياع الهُويّة:

أفرز غياب الهُويّة عن حياة الشّباب جملة من المظاهر السلبيّة، والتي باتت تهدد كيان الأُمّة ووجودها ومنها على سبيل المثال:

١. الجهل بالعقيدة التي هي مدار الاجتماع والافتراق في الدّنيا، والفوز أو الخسران بالآخرة، وهي أشبه ببوصلته في هذه الحياة، وبدأ الشّباب البحث عن انتماءات وولاءات بديلة تتميز بالسطحية والتّفاهة والاستهلاك.

٢. العكوف على تعلم اللغات الأجنبية، والعزوف عن ضبط تعلم اللغة العربيّة.

٣. انجرار الشّباب خلف الأفكار الوافدة بلا تبصُّر أو نظرٍ إلى عواقبها.

٤. غياب مظاهر الالتزام الديني والقيمي، وغياب الهَدي الظاهر الذي يميّز شباب الإسلام من غيرهم.

٥. شيوعُ حالة الاستهلاك والتغيّر الدائم والمتناقض؛ نظرًا لغياب الأرضيّة التأصيليّة.

٦. ضياع الانتماء بصورته العامة؛ فشاعت روحُ الفردية الخالية من القيم الموروثة، وغاب الانتماء للأُسرة، وكثُر عقوق الآباء والأمهات وتقطَّعت الأرحام وتباعد النّاس.

٧. ضحالة الأهداف، وقزم الطموحات والرضى بالدون.

٨. هجرة الشّباب إلى الخارج، والتعايش مع حياةٍ جديدةٍ يتعلق بعاداتهم وطريقة عيشهم وتربية أبنائهم والحفاظ على أبسط مقومات هويتهم.

٩. غياب المعاني القويمة كالمروءة والنجدة والحياء ومكارم الأخلاق التي كان النّاس يستفيدونها من آداب الإسلام، وتعلم الشعر وقصص الأولين، وحلَّت المعاني السطحية والتافهة عبر الفنون والغناء والمسلسلات والأفلام الهابطة؛ التي تورِث الميوعة والانحطاط.

١٠. انعدام ثقافة القراءة والمطالعة الهادفة، وعكوف الشّباب -في الغالب- على قراءة

(١) ينظر: التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين، لسعيد بن سيف السيف، ص (٩٥).

(٢) وكما جاء الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم (الإمام جنة)، البخاري (٢٩٥٧) ومسلم (١٨٤١)، ومن واجبات الإمام المسلم حفظ دين الأمة الذي هو هويتها.

الروايات والنصوص والآداب الرديئة أخلاقيًا، وقيميًا، وفكريًا، ولغويًا، والاكتفاء بمطالعة الرائج على وسائل التواصل.

١١. انتشار ظاهرة هدر الأوقات من خلال التّسكع في الأماكن العامة والمقاهي وأماكن الألعاب، أو حتى الانفراد بالأجهزة الذكية وتضييع الأوقات والأعمار بها.

وفي الحقيقة ما كان لمظاهر ضعف الهُويّة لدى الشّباب الظهور بهذا الشكل الواسع لولا ضعفُ الأُمّة وقوّة كيد عدوِّها، وهذا الضعف جعل الغرب يُسرع أكثر في تحقيق طموحاته في محوِ هُويّة الأُمّة، ويجعلها أكثر انسياقًا له متلمِّسةً عنده الرشد والخلاص، وهذا الكيد قديمٌ ومستمرٌّ إلى قيام الساعة؛ إلا أنَّ تحقيقَ نتائجه متوقف على مدى قوة الأُمّة ووعيها لذاتها وعدوها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، واستطاعتهم تتحقق بضعفنا، وتفشل وتتأخَّر بقوتنا.

> **ما كان ضعف الهُويّة لدى الشّباب أنْ يظهر بهذا الشكل الواسع لولا ضعفُ الأُمّة وقوّة كيد عدوِّها، وهذا الضعف جعل الغرب يُسرع أكثر في تحقيق طموحاته في محو هُويّة الأُمّة، ويجعلها أكثر انسياقًا له متلمِّسةً عنده الرُّشد والخلاص، وهذا الكيد قديمٌ ومستمرٌّ إلى قيام الساعة**

وهنا لا يمكننا التّحدث عن ضياع الهُويّة لدى جيل الشّباب ما لم نذكر الجذور القديمة له، ولعلّ من أهمها على الإطلاق: الغزو الفكريّ والثقافيّ الذي تعرضَت له الأُمّة، فقد بدأ الغزو بصورته القوية عقِب فشل الحملات الصليبيّة على أرض الإسلام، وما تلا ذلك من خيبة أمل كبيرة لدى الصّليبين عمومًا، وكبار دهاقينهم على وجه الخصوص، لأنّهم لم يستطيعوا أنْ يقيموا لهم مُلكًا في أرض الإسلام، ولم يستطيعوا أنْ يُذلّوا الأُمّة بسبب تمسكها بهويتها.

لقد شكّل اعتقال لويس التاسع الفرنسي[١] ذروة الهزيمة لحلف الصّليبيين، فبدؤوا يفكِّرون بهدم الأُمّة من الداخل عبر قتل مقوِّمات بقائها؛ وكان ذلك على عاتق المستشرقين الذين درسوا تراث الأُمّة بأدقّ تفاصيله.

ثم بعد سقوط الأندلس جاءَت حِقبة الاستعمار فاحتُلت البلدان، وخضعَت للمستعمر وسياساته التخريبية.

بدأ المستعمر باستقبال البعثات العلميّة والطلابيّة في بلاده، وتغذية هذه البعثات على أعيُنه بثقافة تجعلهم يستصغرون أنفسهم وأُمّتهم أمام بهرج الحضارة الأوروبيّة، وهذا ما جاء على لسان القسيس ويتبرتيش: «يجب أن نُنْشئ جسرًا فوق الهاوية التي تفصل بين العناصر، وللتوصل إلى ذلك يجب أنْ ننتفعَ بوجود الطلبة المسلمين في إنكلترا...»[٢]، ومن هنا بدأت مرحلة تفريخ المستغربين في بلداننا.

ثم بعد عودة المبتعثين أصبحوا طلائع متقدمة لجيش الغزو الفكريّ والثقافيّ، فبوؤوهم المناصب العُليا، والدّرجات العلميّة العالية، والمناصب الحساسة وسلطوا عليهم الأضواء الباهرة من أجل جذب الأجيال إلى هذا التيار الجارف وإغرائهم به[٣].

قام الاستعمار بإنشاء مؤسسات تعليميّة على الطراز الغربيّ وأغدق على الدارسين والمدرسين فيها العطاء تشجيعًا للناس على ارتيادها، فناقضت هذه المدارس عبر مناهجها روحَ الأُمّة وهويَّتَها، بل أصبح طلابُها حزبًا جديدًا ميلُه وحبُّه وإكبارُهُ للمصدر الذي صدر عنه ما تعلموه..[٤]، ما دفع أحد شعراء

(١) تم أسره في معركة المنصورة في مصر سنة ١٢٥٠م، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (١٤٣/١٣).

(٢) أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص (٧٠).

(٣) ومن أمثال هؤلاء: طه حسين، ورفاعة الطهطاوي؛ فبعد عودة طه حسين فُتحت له أبواب كلية الآداب في جامعة القاهرة لينفث سمومه من خلالها، فمن هجوم على الإسلام والأنبياء إلى تشكيك بالقرآن الكريم والشعر العربي الجاهلي تطبيقًا لنظرية الشك التي نقلها عن ديكارت، إلى دفاعه المستميت لإقصاء تدريس التاريخ الإسلامي، وإحلال التاريخ اليوناني مكانه باعتباره كان باعثًا لنهضة الأوربيين، ولاسيما في كتابيه: «مستقبل الثقافة في مصر»، و «في الشعر الجاهلي». أما رفاعة الطهطاوي فقد ابتعث ليكون مرشدًا دينيًا للبعثة الطلابية المصرية، لكنه افتُتِن بالغرب وبهرج أفكاره ونمط حياته، وعاد بغير الوجه الذي ذهب به، وبدأ ينتقص الحياة المصرية، ويمدح الحياة الفرنسية، ويصور ملاهيها ومراقصها كمثال للرقي والحضارة، وظهرت مخرجات الابتعاث المنسلخة عن الأُمّة في كتاباته ولاسيما في كتابه: «تخليص الإبريز في تاريخ باريز»، ثم أسس مدرسة الألسن التي أخذت على عاتقها نشر الثقافة الغربية تحت ستار العلم والثقافة.

(٤) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود محمد شاكر، ص (١٤٧).

الهند إلى القول: «إنّ الاستعمار أذكى من فرعون الذي استخدم سياسة قتل الأولاد، ولم يفتح لهم مدارس وكليات تقتلهم من حيث لا يشعرون كما فعل المستعمرون»[١]، وضيّق المحتل على التعليم الذي ما زال يحافظ على هُويّة الأُمّة وأبنائها، وعمل على تجفيف تمويل مؤسساته والانتقاص من القائمين عليها في معايشهم ودَورهم، فأصبح لا يرتاد هذه المؤسسات إلا أبناء الطبقات الفقيرة والمهمشة، بينما كانت المدارس التغريبيّة من نصيب الأغنياء وفراخ الاستعمار الذين سيستلمون دفّة الحُكم لاحقًا.

بدأت الكارثة منذ أن أنشب القسّ «دُونلوب» أظفاره في جسد التعليم وصياغته بطريقة مغايرة لروح الأُمّة وهويتها، ليصبح مخططه الذي بدأه في مصر أُسوةً لباقي الدول الخاضعة للاستعمار[٢].

> **عني المستعمر بإفساد التعليم؛ فاستقبل البعثات العلميّة وغرَّب روَّادها، ثم بوَّأهم المناصب الحساسة في بلادهم، وأنشأ مؤسسات تعليميّة فاخرة على الطراز الغربيّ، ناقضت عبر مناهجها روحَ الأُمّة وهويَّتَها، وأصبح طلابُها حزبًا جديدًا ميلُه وحبُّه للغرب**

كانت عمليّة تغريب شباب الأُمّة تُصنع على أعيُن المستشرقين والمبشّرين، وتُراقَب عن كَثب، وتُعقَد لها المؤتمرات، وتُحاك لها المؤامرات، ويُكال المدح للقائمين عليها؛ كما فعل المستشرق زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م من تهييج للمبشرين وثناءٍ على جُهودهم، والذي نضطر إلى نَقل جزءٍ من خطابه في هذا المقام تنبيهًا -للأُمّة عامةً، ولجيل الشّباب خاصةً- لحجم الخطط التي كانت تُعدُّ لضياع هويتهم[٣]:

«لقد قبضنا أيّها الإخوان في هذه الحِقبة من الدّهر -من ثُلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا- على جميع برامج التّعليم في الممالك الإسلاميّة... إنّكم أعددتم شبابًا في ديار الإسلام لا يعرف الصّلةَ بالله ولا يريد أنْ يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحيّة، وبالتالي جاء النّشء الإسلاميّ طبقًا لما أراد له الاستعمار، لا يهتمُّ للعظائم، ويحبُّ الرّاحة والكسل، ولا يصرف همَّه في دنياه إلا في سبيل الشّهوات، فإذا تعلَّم فللشهوات، وإنْ تبوّأ أسمى المراكز فللشهوات، ففي سبيل الشّهوات يجود بكل شيء».

هذا الخطاب الخطير الذي يعُجُّ بالكُره للإسلام وأهله يعرض النتائج الخطيرة التي وصلت إليها حالة الأُمّة وشبابها، وأنّ تلك الخطط قد آتَت أُكُلها في ممالك الإسلام، وأنّ الجيل قد بلغ مرحلة متقدِّمة من الضّياع.

وقد استهدف هذا الغزو عددًا من المحاور الأساسية في هُويّة الأُمّة والتي منها:

محور العقيدة:

الأمم لا تتمايز من خلال لغاتها فحسب؛ بل من خلال عقائدها أيضًا، بل العقيدة هي الأكثر تمييزًا؛ لأنّه قد يجتمع على اعتناقها مَن ينتمون إلى لغات شتّى، وهي الطاقة الجبّارة التي كانت تحرّك قلوب المسلمين ليتجمعوا في وجه الحملات الصليبيّة فيكسروها بعد الاستعانة بالله، لذا وضع الغرب هدم العقيدة نصب عينيه وبدأ بإحكام الخطط لهدمها: «ولكن أقصى ما على المبشّر عمله هو تفريغ قلب المسلم من الإيمان بالله»[٤].

محور اللغة:

تُعدُّ اللغة نقطة محورية في الحفاظ على قوة الأُمّة من خلال الحفاظ على موروثها الحضاريّ وثقافتها ودينها، لذا كان الاهتمام بها كبيرًا منذ عهد الرعيل الأول فقد جعل عمر بن الخطاب ﷺ التفقه بالعربية من الدين، وتعلمها يزيد المروءة[٥]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واللغات من أعظم شعائر الأُمم التي بها يتميزون»[٦]، لذا توجهت الحرب إلى اللغة أيضًا باعتبارها المفتاح لتحطيم هُويّة الأُمّة وأجيالها، وهذا ما نجده في أفعال المستعمرين وأقوالهم فالحاكم الفرنسي على

(١) روائع إقبال، نقلًا عن كتاب العلمانية لسفر الحوالي، ص (٥٩٣).
(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود محمد شاكر، ص (١٤٨) بتصرف.
(٣) يمكن الرجوع إلى كتاب أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ففيه كامل الخطاب ص (١٠١)، وفيه ذكر لكثير من المؤتمرات.
(٤) من كلام زويمر في مؤتمر القاهرة التبشيري المنعقد سنة ١٩٠٦، أجنحة المكر الثلاثة.
(٥) ومن يتتبع سيرة السلف يجد حرصهم الشديد على حفظ اللغة العربية باعتبارها مفتاح فهم القرآن والدين.
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم (٥١٩/١).

من وسائل بناء الهُويّة لدى الشباب

١ توثيق الارتباط بماضي الأمة المجيد زمن قوتها وازدهارها

٢ ربط الشباب بالقرآن الكريم

٣ الارتباط بنفائس التّراث الذي أنتجته أمتنا والإفادة منه

٤ الاطلاع على سير قدوات أمتنا العظماء

٥ التعرُّف على الأعداء ووسائلهم في الحرب

٦ تعزيز علاقة الشباب بالمسجد، والعيش في ظلاله

٧ الاعتزاز باللغة العربية والافتخار بها

٨ حث الشباب على حفظ أوقاتهم واستثمارها بالمفيد النافع

الجزائر يقول: «يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر عليهم»[١]، فبدأ التشكيك بتاريخها وشعرها ونثرها؛ والتشويه لنحوها ووسمه بالصعوبة والتعقيد؛ وكذلك استبدال العامية الدارجة بها؛ وتخليصها من معانيها القويمة المؤثرة في بناء الشخصية، ومن ثمّ استبدالها باللغات الأجنبية الأخرى، يقول الرافعي: «ما ذلّت لغة شعب إلا ذلّ، ولا انحطّت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأُمّة المستعمَرَة»[٢].

وضعف ارتباط الأجيال بلغتهم هو قطع للصلة بينهم وبين فهم أمتهم وتاريخها ودينها ونتاجها الحضاريّ، وبالتالي سيتوجهون إلى تاريخ تلك اللغات الأخرى، وثقافتها وحضارتها فاقدين لهويتهم مغترين بهُويّة الغير حالهم حال قول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبًا فارغًا فتمكنا

لذا تعمِد الأمم التي تحترم هُويّة شعوبها إلى تحصينهم من التأثر بتحصين لغتهم، في حين تعمِد الدول الضعيفة المنهزمة على تقوية اللغات الأجنبية في بلدانها، وجعلها أساسية في المناهج التعليمية، وشرطًا للتوظيف وإتمام الدراسات العليا.

ضعف ارتباط الأجيال بلغتهم هو قطعٌ للصلة بينهم وبين فهم أمتهم وتاريخها ودينها ونتاجها الحضاريّ، وبالتالي سيتوجَّهون إلى تاريخ تلك اللغات الأخرى، وثقافتها وحضارتها فاقدين لهويَّتهم مغترِّين بهُويّة الغير

محور التاريخ:

تاريخ أُمّة ما هو شخصيَّتها وإنجازها التراكمي، ومعرفة ذلك التّاريخ مهمٌّ للغاية في توضيح ملامح

(١) الهُويّة منار الشّباب، لبدوي محمود الشيخ، ص (١٦).
(٢) وحي القلم، لمصطفى صادق الرافعي (٢٧/٣).

عصور تلك الأُمّة لدى أجيالها، فهو تاريخٌ مجيدٌ مديد، يبعث في صفوف أبنائها نسائم العزّ وصور النصر والانتصار، ويحكي لهم العبر للاستفادة منها في مستقبلهم.

ولأهمية هذا التاريخ عمد الغرب وفراخه إلى تزويره، وتشويهه بأقبح الصور، واختزال سعته ببعض المواقف الطارئة، واختلاق الأكاذيب حول تاريخها وسيرة سلفها، ودُسّت كل تلك السّموم في مناهج التعليم في مراحله كافة.

محور العادات والتقاليد:

بدأت تتسلل إلى الشّباب عاداتٌ وتقاليدُ دخيلة، فمنها ما يتعلق بالأشكال الظاهرة، ومنها ما يتعلق بالمضامين، واضمحلّت عادات وأعراف المجتمع القديمة التي كانت بمثابة رافد قويّ للهُويّة، وامتلؤوا بقناعات ومضامين مختلفة دفعت بهم إلى نعت أعراف أمتهم وتقاليدها بالبالية، وتقاليد الآخرين بأنّها عصريّة وحضاريّة.

محور الأُسرة:

الأُسرة هي النواة الصغيرة في المجتمع ومن بعدها الأُمّة، والمفهوم الأُسريُّ قائم لدينا على الأرحام والتراحم، والتساند والتعاضد، هذا المفهوم له محدداته المتعارف عليها كطاعة الوالدين والصدور عنهما باعتبارهما الراعيان للأبناء، والإعلاء من مكانتهما كلما تقدم بهما العمر، وكذلك احترام المرأة والغيرة عليها، وإعدادها لتكون أهلاً لتربية الأبناء وتأسيس أُسرة ناجحة، فبقي المجتمع متماسكًا متعاضدًا زمنًا طويلاً، وبقيت الأُسرة نقطة البداية لتكوين هُويّة الأبناء بهذه المفاهيم القويمة، هذا التماسك الأُسريّ لم يعجب الغرب، فسعوا إلى ضرب هذه النواة الأولى وتفكيكها، وغرس التمرُّد في صفوف الأبناء على آبائهم، وقلة العناية بتربيتهم من قبل الآباء، وتركت تربيتهم لوسائل الإعلام لتقوم بالمهمة، وتنشر بينهم الأفكار المغايرة لمجتمعهم منذ الصغر، ما أفرز تعددًا للرؤى والقناعات في الأسرة الواحدة، وانهار معنى القوامة للرجل على أهل بيته، وتوجهوا إلى المرأة عازمين على إفسادها باعتبارها إحدى المقومات الكبرى في حياة الأبناء عبر إخراجها من بيتها، وعندما خرجت تلقفوها بالأفكار الخبيثة التي تتمرد فيها على دينها، وعلى مجتمعها وبذروا في ذهنها أفكار التحرر والتّخلص من مكانة الرجل وقوامته عليها، فأنشؤوا المدارس وأسسوا الجمعيات والملتقيات والندوات والمنظمات التابعة لأممهم المعادية لأمتنا، ولما يسمى منظمات المجتمع المدنيّ، وكلها واضعة نصب عينيها هدف الإفساد للمرأة، ومن ثم إفساد الأُمّة كلها «لا سبيلَ إلاّ بجلب النّساء المسلمات إلى المسيح.. فكلّ نشاطٍ مجدٍ للوصول إليهنّ يجب أن يكون أوسع»[1].

> **الأُسرة في الإسلام نواة تكوين هويّة الأبناء بالمفاهيم القويمة، وتماسكها لم يعجبِ الغرب، فسعَوا إلى ضربها وتفكيكها، وغرسِ التمرُّد في صفوف الأبناء على آبائهم، وإشغال الآباء عن تربيتهم، لتقوم وسائل الإعلام بإفساد أفكارهم منذ الصغر**

أسباب ضياع هوية الشباب:

نلحظ من كل ما سبق أنّ من أسباب ضياع الهُويّة لدى الشّباب ما يلي:

١. حالة الضعف التي مرَت بها الأُمّة، وعدم قدرتها على مواكبة التغييرات التي حصلَت لدى العدو على غالبية الأصعدة.

٢. خضوع البلدان للاحتلالات المباشرة، أو غير المباشرة، وتهيئة الظروف المناسبة لعمل مراكز الاستشراق.

٣. انشغال طليعة الأُمّة -على قلتهم- من مصلحين بالدفاع عما بقي من مرتكزات، والردّ على مخططات العدو، وعدم القدرة على تأسيس جيلٍ جديد يقاوم ذلك التيار التغريبيّ الجارف بسبب ذلك الانشغال.

٤. وضع العدو ثقلَه في التّعليم باعتباره النطاق الأكثر تأثيرًا والأسرع من حيث النتائج، ووضع جيل الشّباب في مرمى هدفه.

٥. عمل المنظمات الأمميّة المنبثقة عن النظام العالمي، كمنظمة اليونسكو التي تهتم بالتعليم، وكذا حال منظمات المرأة، وحقوق الإنسان، وحقوق الطفل كلها تعمل في ذات الغايَة وهي تغريب أبناء الأُمّة وتضييع هويتهم.

(١) مؤتمر القاهرة التبشيري ١٩٠٦، أجنحة المكر الثلاثة، ص (٧٣).

٦. الإعلام، وشدة بهرجه وقوة عرضه للأفكار والقيم، ودوره في سرعة انتشارها والتفاعل معها، فقد أصبح مصدر التلقي لدى الشّباب مع أن ما يبث من خلاله غاية في الخطورة على الأجيال.

٧. ضعف المناعة العقديّة والفكريّة العامة على المستويات كافة؛ رسمية كانت أم مجتمعيّة أم أُسريّة.

٨. حالة التهميش التي يعاني منها المفكرون والدعاة والكتاب وأصحاب الرؤى الإصلاحيّة في كثير من البلدان، وإفساح المجال للمتملقين، وكُتّاب البَلاط، ومثقفي العناوين، ومشايخ السلطان ودعاته، الذين لا يهمهم في أيّة طريق سار مركب الشّباب، ولا يهمهم المحافظة على كيان الأُمّة وهُويّة أبنائها.

٩. روح الانهزام السّارية في جسد الأُمّة، عبر سطوة المحتل وقوة آلته العسكريّة، والإعلاميّة، وكذلك ما روج له أفراخ الاستعمار وتلامذة المستشرقين من تغذية لهذا الشعور لدى الشّباب.

١٠. الواقع الاقتصادي المتردي وانتشار البطالة في كل طبقات المجتمع المتعلمة وغيرها، وهذا يلقي بالآثار السّيئة على نفسية الشّباب، ويجعلهم ينحدرون إلى أوحال المخدرات والجريمة، أو الارتماء في أحضان المفسدين، ويتساوى عندهم الرشد والضلال، والخير والشر، وتنعدم المبالاة لديهم تجاه الحياة.

١١. ضعف العلاقة بالله المتمثلة بالإيمان به، وبما قدره على كل إنسان من خير أو شر، بما يجعل الشّباب بلا استقرار نفسي، وبلا اتساق مع روح الأُمّة التي تؤمن بتصرف الله الكامل في هذا الكون، ويجعله يبحث عن بدائل لهذه العلاقة مع الله عبر اعتناقه لقناعات مستوردة قد تؤدّي به إلى الانتحار.

١٢. غياب دور المسجد في حياة الأُمّة عامةً، وحياة الشّباب خاصةً، وذلك لبعده عن محاكاة واقعهم، وحلحلة مشكلاتهم، وربطهم بروح أُمّتهم، وصياغتهم صياغةً صحيحةً، فقد كان للمسجد الدور الأبرز في حياة الأُمّة.

١٣. تنصّل الآباء من حمل الأمانة التي أُنيطَت بهم في الحفاظ على هُويّة أبنائهم لكونهم رعاة وهم مسؤولون عن رعيتهم، فالرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق قد بين لنا أنّ مهمة الحفاظ على عقيدة الأبناء التي هي هويتهم الدينيّة منوطة بآبائهم وأمهاتهم: (كل مولود يولد على الفِطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجِّسانه)[1].

هُويّة الشّباب مسؤوليةٌ جماعيةٌ لا مناصَ لأحدٍ في التنصُّل منها؛ لأنّه إذا ضلَّ الشّباب ستضلُّ بضلاله أجيالٌ قادمة وستُنشّأ وفقًا لما يريده العدو

بناء الهُويّة المهدمة:

بعد هذا الاستعراض السّريع لضياع الهُويّة، والأسباب التي أدت إليه ها نحن أولاء نضع بعض الإضاءات التي تنير للشباب طريقهم وتعيدهم إلى هويتهم الحقيقية:

١. توثيق الارتباط بماضي الأمة المجيد زمن قوتها وازدهارها؛ ليتحقق الصلاح، كما قال الإمام مالك رحمه الله: «لا يُصلح آخرَ هذه الأُمّة إلا ما أصلح أولها»[2].

٢. ربط الشباب بكتاب ربهم؛ ففيه صلاحهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة.

٣. الارتباط بنفائس التّراث الذي أنتجته أمتنا والإفادة منه.

٤. اطلاع الشّباب على رجال تاريخنا الذين يستحقون الاقتداء بهم، بدءًا بسيرة نبينا ﷺ وصحابته الكرام ومن سار على خطاهم، والحذر من المدلسين والمشوهين للتاريخ وشخوصه متمثلين قول القائل:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامع

٥. التعرُّف على الأعداء ووسائلهم في الحرب حتى يحذروا من كيدهم، وهذا من الحكمة والبصيرة والعون على التمسك بالهُويّة.

(١) صحيح البخاري (١٣٨٥).
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض (٨٨/٢).

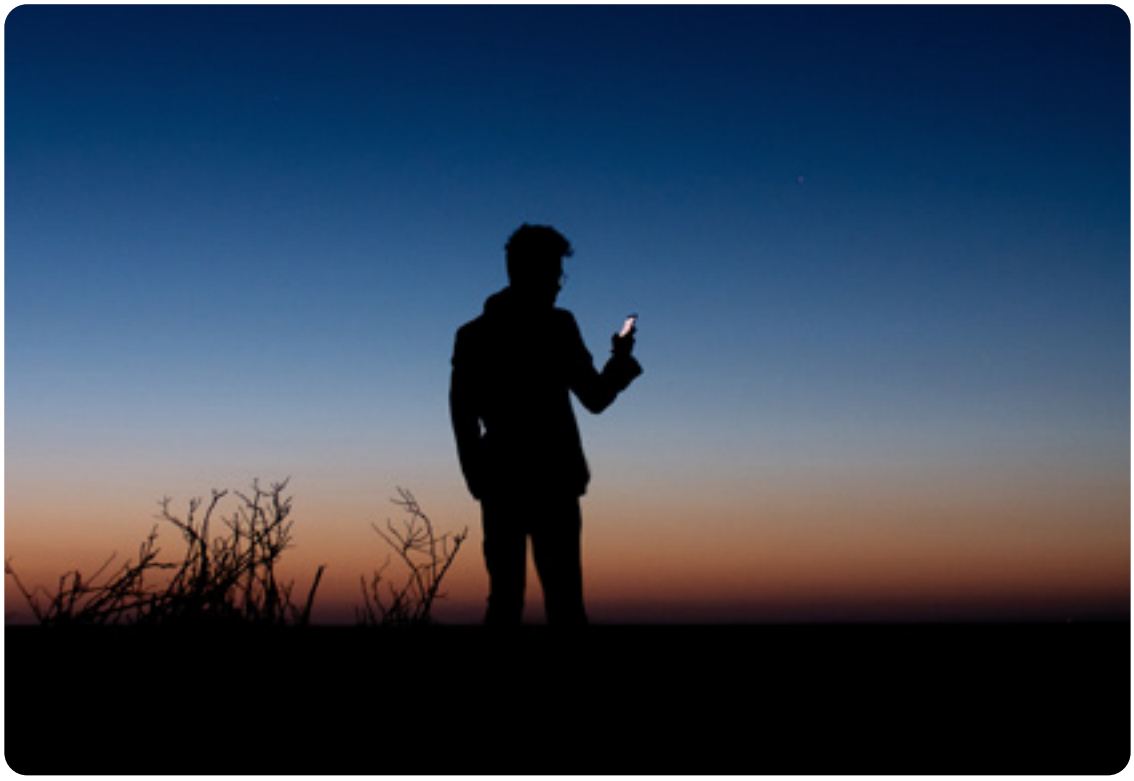

٦. تعزيز علاقة الشباب بالمسجد، فهو المنارة الأولى للعلم، وفي ظلاله السكينة والاطمئنان.

٧. الاعتزاز باللغة العربية والافتخار بها؛ مِن شعرها ونثرها، وما كتب فيها من ثقافتها.

٨. تحريص الشباب على أوقاتهم واستثمارها، وليكن تعاملهم مع وسائل التواصل وغيرها مرشدًا مقتصرًا على المفيد النافع.

فيا أيّها الآباء: الأمانة في أعناقكم ثقيلة فلا تضيعوها، فبداية طريق الشّباب من عندكم، فاملؤوهم منذ الصغر بما يجعلهم أعضاء فاعلين في جسد أمتهم، فأنتم أول من سيحصد نتاج زرعكم.

ويا أيّها المعلمون: أنتم القدوة في نظر الشّباب فكونوا على قدر جمال الصورة التي رسموها لكم، أرشدوهم للنافع من العلوم، وكوّنوا فكرهم ووسعوا تصوراتهم عن أمتهم وشخصيتهم وهويتهم.

ويا أيّها المصلحون: كثفوا جهودكم التي تستهدف الشّباب، ولتكن موضوعاتها في صلب اهتمامهم، حدثوهم عن هويتهم، عن عدوهم، عن مستقبل مشرق لهذا الدين ينتظر منهم الجد والعمل، انشروا بينهم الأمل والتفاؤل.

ويا أيّها الدعاة أصواتُكم محطُّ اهتمام الآذان والقلوب، فادخُلوا إلى قلوب الشّباب واعمُروا قلوبهم بالإيمان، بيِّنوا لهم طريق الحق، وحذِّروهم من طُرق الزيغ والضلال، واختاروا موضوعات خُطبكم ودروسكم لتكون قريبة من الشّباب وهمومهم، كونوا سباقين إلى الإجابة عن تساؤلاتهم وما يشغل بالهم، وكونوا لهم مناعة وقناعة ضد ما يوسوس لهم به شياطين الإنس والجن.

خاتمة:

إنّ هُويّة الشّباب مسؤولية جماعية لا مناص لأحد في التنصل منها؛ لأنّه إذا ضل الشّباب ستضل بضلاله أجيال قادمة وستُنشّأ وفقًا لما يريده العدو.

وإنّه من الصعوبة بمكان أنْ يعطى هذا الموضوع الحساس والملح حقه في صفحات معدودات، ولكنْ حسبك من القِلادة ما أحاط بالعنق، وما لا يُدرك كلّه لا يُترك كلّه، لعلَّنا نرى واقعًا جديدًا لشبابنا شعاره العزّة والفخر بانتمائه لهذه الأمة، ولعلنا نرى جهدهم الفاعل في جوانب الحياة كافة، والله المستعان، وعليه التوكل، وبه الإيمان.

قراءةٌ في كتاب: (عطاء الإسلام الحضاري) لأنور الجندي

د. فاطمة علي عبُّود (*)

رضي الله الإسلام لبني الإنسان دينًا، ليكون سعادةً لهم في الدنيا ونجاةً لهم في الآخرة. والسعادةُ في الدنيا لا تتحقَّق إلا بانتهاج الإسلام في واقع الحياة المدنية والاجتماعية، وبذلك يمكن جني العطاء الحضاري للإسلام الذي يضمن للناس الهناء تحت ظلال الكرامة والعدل والرحمة، وهذا العطاء له صفاتٌ وملامح أوضحها الأستاذ أنور الجندي في كتابه المتميز

التَّعريف بالمؤلف:

المفكِّر والأديب المصريُّ أنور الجندي (١٩١٧-٢٠٠٢م)، نشأ نشأة علميَّة، إذ كان أبوه قاضيًا شرعيًّا ومحقِّقًا لكتب التراث الإسلاميِّ. تمكَّن من الاطِّلاع على ثقافة الغرب ومعرفة نظرتهم للثقافة الإسلاميَّة؛ فوجَّه اهتمامه ونقده لما قدَّمه المستشرقون حول الإسلام والثَّقافة الإسلاميَّة، كما صبَّ اهتمامه ونقده للكثير من الشَّخصيات العربية التي تأثَّرت بالفكر الغربيِّ، وكانت لهم مواقف معادية للإسلام وتهدف إلى تشويه تراثه الحضاريِّ.

صاحب أسلوب أدبي رفيع، استخدَمَ قلمَهُ لنشر الثقافة الإسلاميَّة بشكلها الصَّحيح، والمحافظة على الهويَّة الإسلاميَّة من التَّزييف والاندثار من خلال عدد كبير من الكتب والمقالات والمحاضرات والمؤتمرات.

نظرة على الكتاب:

يشمل الكتاب ستة أبواب، وفي كلِّ بابٍ يعرض الكاتب مجموعةً من الأفكار المترابطة فيما بينها؛ لتشكِّل في مجملها موضوعًا مستقلاً متكاملاً.

(*) دكتوراه في اللُّغة العربيَّة وآدابها، عضوة في الجمعيَّة السُّورية للعلوم الاجتماعيَّة.

> **إنَّ وجود المشروع الحضاريِّ الإسلاميِّ أصبح ضرورةً لازمةً للكفِّ عن الانقياد والتَّبعية، وقد أثبت جدواه في أمور الدُّنيا والدِّين، فالمنهج الإسلاميُّ يحقِّق التوازن والانضباط الذي يقوِّم أخلاق الفرد؛ فيجعله قادرًا على تحمُّل المسؤولية وبناء أسرته ومجتمعه**

مَدْخَلٌ إلى الكتاب:

يتمحور الكتاب حول فكرةٍ أساسيَّةٍ وهي: أنَّ المشروع الحضاريّ الإسلاميّ لا يُقام بنيانه ولا يترسخ إلا إذا استند في أسسه إلى النهج الربَّاني الذي نراه حاضرًا في كتابه الكريم، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، هذا الكتاب الخالد والصالح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ يقوم على «مخاطبة العقل والقلب والوجدان»، وتمتزج في تشريعاته الأصالة والمعاصرة.

إنَّ وجود المشروع الحضاريِّ الإسلاميِّ أصبح ضرورةً لازمةً للكفِّ عن الانقياد والتَّبعية، وقد أثبت جدواه في أمور الدُّنيا والدِّين، على عكس المناهج الوافدة التي سقطت بعد مدَّةٍ وجيزةٍ من تطبيقها، فالمنهج الإسلاميُّ يجمع بين الروح والمادة، والقلب والعقل، والمنهج والتطبيق، والوحي والنقل؛ ليحقِّق التوازن والانضباط الذي يقوِّم أخلاق الفرد؛ فيجعله قادرًا على تحمُّل المسؤولية وبناء أسرته ومجتمعه؛ وبالتالي حكومته، ويشير الكاتب بناءً على ذلك إلى جملةٍ من الحقائق التي يمكن أن نُجملها بالتالي:

- الإسلام دينٌ ومنهجُ حياةٍ.
- الإسلام يقبل المفاهيم العصريَّة ويصهَرُها في وجوده وكيانه، مع المحافظة على خصوصيَّته.
- الإسلام يكرّم الإنسانَ، ويُقيم حياته على مفهوم المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي.
- الإسلام يجعل الملكية الحقيقة للثروة والأموال لله تعالى، ويجعل الإنسان مستخلفًا فيها.
- الإسلام يجمع بين الثوابت المتغيرات، كما يجمع بين الروح والمادة، والقلب العقل، والدنيا والآخرة.
- يقرِّر الإسلام المساواة التكاملية بين المرأة والرجل، كل له وظيفته بما يناسب طبيعته.
- استحالة انفصام الشخصية الإسلامية عن الدين والإيمان بالله مهما حاولت القوى التغريبية، فالإنسان بحاجةٍ للدين والتديُّن ليحقِّق الاستقرار النفسيَّ، والأمن والأمان.

واليوم يتطلَّع الكثيرُ من الغربيين للإسلام على أنه المنقذ من هذه الأزمة والضياع، والمسلمون يؤمنون بأن بلادهم مستهدفةٌ ينبغي حمايتُها، وضرورة أسلمة المناهج والمعارف والعلوم وتقديم البدائل الأصيلة للبشرية، فالإسلام هو الوحيد القادر على تحرِّيها من عوامل القلق والاضطراب.

وهذه جولة في فروع المشروع الحضاري الإسلامي، أو عطاء الإسلام الحضاري.

> **جاءت رسالة الإسلام بنظام اجتماعيٍّ عامٍّ يمكن تطبيقه على كلِّ النَّاس وفي كلِّ العصور، خلافًا للرسالات السابقة التي كانت خاصَّة بأقوامٍ محدَّدين وفي عصورٍ معيَّنةٍ**

الباب الأول

الإسلام الدين الخاتم لرسالات السَّماء:

حاول أعداء الإسلام الطعن فيه، فادَّعوا أنَّه مستوحى من الديانات السابقة، وحاولوا إيجاد الشبه بينه وبينها؛ ليشكِّكوا في حقيقته ومصداقيَّته، ومن أهمِّ ما يمكن الردُّ به على تلك الشبهة: هو أنَّ الإسلام وما سبقه من الديانات السماوية مصدرها من الله تعالى، ودعوة هذه الأديان واحدة، لكنَّ ما ميَّز رسالة الإسلام هو أنَّ الله قد ختم بها الرسالات السابقة، كما جاءت رسالة الإسلام بنظام اجتماعيٍّ عامٍّ يمكن تطبيقه على كلِّ الناس وفي كلِّ العصور، خلافًا للرسالات السابقة التي كانت خاصَّة بأقوامٍ محدَّدين وفي عصورٍ معيَّنةٍ.

وقد عمل دعاة التبشير والمستشرقون على صد الناس عن الإيمان بالدين الخاتم، وألَّفوا في ذلك مئات الكتب والموسوعات، لكنَّ طلاب الحق لم تَحجُبهم هذه الأباطيل، واستطاعوا الوصول إلى حقيقة الإسلام وتبيَّنوا منهجه، حتى أنصفه عدد كبير منهم واعترفوا بمعطيات الإسلام في العلوم التجريبية.

المسلمون أمَّة متميزة:

ظهرت في بلاد المسلمين دعواتٌ متعدِّدة ممَّن تشرَّبوا الثقافة الغربية تطالب بفصل الدِّين عن الدولة أو تُنكر وجود الدِّين، وتطالب بتطبيق الديموقراطية، وهذه الدعوات تقوم على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان؛ لأنَّ العدل في تلك المناهج الديمقراطية المزعومة لا يتحقَّق، والمساواة بين طبقات المجتمع معدومةٌ، بل إنّها تنتصر للقوي، في حين أنَّ الإسلام يقوم في نهجه على المساواة بين الناس وبين طبقات المجتمع، فلا يميِّزهم منصبٌ سياسيٌّ أو مكانةٌ اجتماعيةٌ أو عرقٌ أو لونٌ.

الإسلام عقيدةٌ ومنهج حياة:

الإسلام ليس دينًا يختصّ بالشعائر التعبّدية والأخلاقية فحسب، بل هو بتكامله اشتمل على كلِّ قواعد الحياة وإدارة المجتمع وإقامة الدولة، بخلاف الأديان التي تعرَّضت للتحريف والتبديل. وقد اعترف بعض المستشرقين -بعد مواجهتهم مشاكل معقَّدة في المعاملات كمشكلة الربا، ومشاكل في التربية الأخلاقية- أنّ منهج الإسلام هو وحده القادر على قيادة العالم. لقد استطاع المسلمون بهذا المنهج الربَّاني أن ينشروا الإسلام في أقاصي الأرض، ثمَّ تراجعوا وانحسروا حين ضعف تمسّكهم به لكنَّ هذا لا يغيِّر حقيقة أنَّ الإسلام دينٌ عالميٌ يخاطب فطرة الإنسان، ويدعو إلى التقدُّم الحضاريِّ.

> **جَمَع الإسلامُ البشرية تحت رايته، فاندثرت عادات الجاهليَّة العصبيَّة، وتحرَّر الإنسان من عبوديَّة الإنسان وعبوديَّة الأوثان ليكون عبدًا لله تعالى وحده، كما دعا القرآن إلى إعمال العقل والتفكُّر في خلق الله؛ ممَّا أعطى قيمةً متقدِّمةً للعقل**

الباب الثاني

القرآن الكريم عطاءٌ لا يتوقَّف:

أنصَفَ بعض المستشرقين الإسلامَ حيث عرفوا حقيقته، وتمعَّنوا في نهجه الكامل المتكامل، وقد اعترفوا على الملأ بأنَّ القرآن الكريم هو معجزةٌ إلهيةٌ لا يمكن لبشر أن ينال ممَّا جاء فيها، كما أكَّدت المؤتمرات العلمية والطِّبية المنصفة المقامة في الغرب إعجازَ القرآن، لكنَّ ذلك أثار حفيظة بعض أعداء الإسلام والمستغربين، فراحوا يُهاجمون تلك الحقائق ويُخفونها عن العالم ليضلِّلوا أمَّة الإسلام.

مصداقيَّة القرآن في العلوم التجريبية:

جَمَع الإسلامُ البشرية تحت رايته، فاندثرت عادات الجاهليَّة العصبيَّة، وتحرَّر الإنسان من عبوديَّة الإنسان وعبوديَّة الأوثان ليكون عبدًا لله تعالى وحده، كما دعا القرآن إلى إعمال العقل والتفكُّر في خلق الله؛ ممَّا أعطى قيمةً متقدِّمةً للعقل، فكان هذا المنهج سببًا في دخول الكثير من علماء الغرب إلى الإسلام، وقد اعترف كثير منهم بالأسباب التي جعلت الغرب يُضمر العداء للإسلام والمسلمين، فأشاروا إلى حالة النُّكران التي أصابت الغرب حين رأوا تفوّق حضارة المسلمين وتأخّرهم، فحاولوا تشويه صورة الإسلام، وسلبوا من المسلمين علومهم أثناء الحروب الصليبية، واستلهموا منها ما أقاموا به صرح حضارتهم، ونسبوا ذلك المجد لهم.

محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين:

أرسى محمد ﷺ قواعد الإسلام ونشر رسالته على أكمل وجه، وقد أشاد المنصفون من الغرب بشخصيّته، وعدَّه مايكل هارت في كتابه (الخالدون المائة) أعظمهم، وجعله في أوَّل القائمة؛ لأنّه –حسب قوله- الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على المستوى الديني والدنيوي، وكان قائدًا عسكريًا وسياسيًا ودينيًا، ولا يزال تأثيره القوي متجدِّدًا في نفوس الناس رغم مرور ثلاثة عشر قرنًا على رحيله.

اللغة العربية الفصحى لغة القرآن:

بينما كان الأعداء يبحثون عمَّا يشوِّهون به الإسلام، كان الطعن في اللغة العربية منفذًا لبثّ سمومهم، فقد عمل المستعمرون على فرض لغتهم؛ حتى تتراجع اللغة العربية، وسعى المستشرقون إلى تقديم منح للدارسين العرب والمسلمين في جامعاتٍ غربيةٍ شهيرةٍ ليتشرّبوا ثقافة الغرب، ولم يكتفوا بذلك، بل افتتحوا مدارس الإرساليات داخل البلاد الإسلامية، وكان من نتيجة ذلك كلّه ظهور جيل يتّهم اللغة العربية بأنَّها قاصرةٌ عن استيعاب العلوم الحديثة، وينادي بالتنوير والحداثة والعلمانية، وإلى تطوير الإسلام ونبذ الشريعة.

حقائق أساسية في العطاء الحضاري للإسلام

- الإسلام شريعة دينية ومنهج للحياة، تجمع بين علاقة العبد بربه وبمجتمعه
- التشجيع على العلوم والتجارب وصهرها في وجوده العام فلا تطغى عليه
- تكريم الإنسان وجعله مستخلفاً على العمران البشري في ضوء الإيمان
- الملكية الحقيقية في الثروة والأموال لله تعالى، والإنسان مستخلف مؤتمن
- الجمع بين الثوابت والمتغيرات، والروح والمادة، والقلب والعقل، والدنيا والآخرة
- التمايز الطبعي بين الأنوثة والذكورة، والتكامل بين الرجل والمرأة لا الندية
- استحالة انفصام الشخصية الإسلامية عن الإيمان الذي يسبغ عليها الأمان والثقة

المدُّ الإسلامي:

بعد مرور قرون طويلةٍ على ظهور الإسلام بدأ صوت الإسلام يرتفع من جديد، رافعًا رايته على الرغم من الهجمات المتكررة التي يسعى بواسطتها الغرب للهجوم على الدين الإسلاميِّ وتشويه صورته، وتقديمه على أنَّه خطرٌ جديدٌ يدقُّ أبوابهم، وهذا لم يمنع بعضَ المنصفين من إظهار إعجابهم بالشريعة الإسلامية القائمة على الإخاء والمساواة والتي تجعل الإسلام دينًا موحِّدًا للبشرية جمعاء.

> **الفرد في الإسلام يتسامى من الأنانية إلى الغيرية التي تتقدَّم فيها مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد؛ لأنَّ الرابطة بينه وبين الجماعة هي رابطة التكافل والتعاون، فالمجتمع الإسلاميُّ يقوم على التوازن بين الروح والمادة عند الفرد، والتوازن بين الفرد والمجتمع**

الباب الثالث

التَّأصيل الإسلاميُّ والمجتمع المعاصر:

بُني المجتمع الإسلاميُّ على أسس العقيدة الإسلامية، وقد ارتبط دور الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه من غير أن يفقد ذاتيته، فهو في دينه يتسامى من الأنانية إلى الغيرية التي تتقدَّم فيها مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد؛ لأنَّ الرابطة بينه وبين الجماعة هي رابطة التكافل والتعاون، فالمجتمع الإسلاميُّ يقوم على أمرين أساسيين: أوَّلهما التوازن بين الروح والمادة عند الفرد، وثانيهما التوازن بين الفرد والمجتمع.

المجتمع المسلم والحضارة الغربية:

المجتمع المسلم موضع تآمُرٍ من قوىً كبرى من أجل هدمه وتدميره بعدّة طرق من أهمّها: تدمير الشباب وإفساده وتحطيم قوّته ومقاومته من خلال إغرائه بالشهوات والمُفسدات، وتدمير المجتمع ثقافيًا وفكريًا ببث نظريات تتعارض مع مفاهيمه الإسلامية، ودعوته للتخلِّي عن

ثوابته؛ بحجّة أنَّها سبب تأخُّره وتخلُّفه وجموده، إضافة إلى محاولة القضاء على قيمه وجعله يفقد خصوصيته بدعوى الأمميَّة؛ وإثارة النعرات الإقليمية والقومية والعرقية، وتشويه الكثير من المفاهيم الإسلامية واستبدال المفاهيم الغربية بها، كمفهوم الديمقراطية الذي يعطي السلطة للإنسان بعيدًا عن المرجعية الإلهية.

حماية المجتمع الإسلامي من العبودية لغير الله:

محاولات تدمير الإسلام واحتوائه لم تتوقّف طيلة أربعة عشر قرنًا، والقرآن يذكِّر المسلمين في مُحكم آياته بأن يأخذوا حذرهم من أعدائهم الذين يتربَّصون بهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]؛ لذلك كان المجتمع الإسلاميُّ يعيش دائمًا حالات من مدٍّ وجزر، ينتصر تارةً، ثمَّ يغفل فينهزم تارةً، ولم يكن العيب في المنهج الإسلاميِّ، إنَّما في الغفلة عن غايات الأعداء التي تستهدف وحدة الأمة، وتحاول فرض مفاهيم التحلُّل لهدم الأسرة المسلمة، وفي العزوف عن تحقيق الموازنة بين المحافظة على ديننا والاستفادة ممَّا يأتينا من الحضارة العالمية لنبني شخصيتنا المتفرِّدة كما أمرنا الله تعالى.

حقوق الإنسان في الإسلام:

كان الإسلام سبَّاقًا في رعاية حقوق الإنسان التي يدَّعي الغرب استحداثها، وقد شهد بعض علماء الغرب المنصفين بذلك، فالحقوق التي يدَّعيها الغرب للإنسان سبق التشريع الإسلاميُّ إلى اعتبارها واجباتٍ لا يمكن للإنسان العيش بدونها، كالنهي عن الإكراه وتحقيق العدل ورفع الظلم وحفظ الحياة دون تمييز باللون والجنس والعِرْق.

الشورى والديمقراطية:

ثمّة مقولاتٌ تجري على ألسنة العلمانيين مثل (إنَّ الديمقراطية المعاصرة هي الشورى) و(إنَّ العدل الاجتماعي الإسلامي هو الاشتراكية)، والحقيقة أنَّ هذا الجدل يدور في دائرة تزييف المصطلحات، فالشورى أقدم من الديمقراطية، وهي منهج ربَّاني بينما الديمقراطيَّة منهجٌ بشري تكون فيه السلطة العليا للإنسان، أمَّا في الإسلام فالسلطة للمشرِّع (الله تعالى) والإنسان خليفة على الأرض.

الانتماء والهوية:

يعدُّ الإسلام مصدر هوية الإنسان وانتمائه، فهو يجمع بين الروح والمادة، العروبة والإسلام، الثوابت والمتغيرات، أمَّا المناهج الوافدة من الغرب كالماركسية والليبرالية والقومية التي يسعى الغرب عن طريقها إلى تدمير وحدة الإسلام والمسلمين فقد أعلنت فشلها عند الغرب ذاتهم وهذا ما دفع المسلمين إلى العودة إلى منهجهم الأصيل والتمسُّك به.

العروبة والإسلام:

سعى الغرب سعيًا حثيثًا لتشويه العلاقة القائمة بين العروبة والإسلام، من خلال دفع العرب إلى التعصُّب لعروبتهم، مدَّعين بأنَّ العروبة قد سبقت الإسلام، متناسين أنَّ الإسلام أقام الوحدة العربية بعد أن كان العرب قبائل متفرقة لا يجمعهم شيء، فمزقوا المسلمين إلى عناصر وأعراقٍ وانتماءات لتدمير وجودهم الحقيقي.

حقوق المرأة في الإسلام:

أعطى الإسلام للمرأة حقوقًا تحفظ لها إنسانيَّتها، وواجباتٍ تتناسب مع طبيعتها، ولم يفرِّق بينها وبين الرجل إلا في القِوامة، أمَّا دعوات تحرير المرأة التي جاء بها الغرب ما هي إلا هدمٌ للأسرة وإفسادٌ للأجيال؛ لأنَّها تتعارض مع مسؤوليتها الأساسية في التربية وبناء الأسرة، كما تتعارض مع طبيعتها الفسيولوجية والعقلية والروحية والاجتماعية.

> **دعوات تحرير المرأة التي جاء بها الغرب ما هي إلا هدمٌ للأسرة وإفسادٌ للأجيال؛ لأنَّها تتعارض مع مسؤوليتها الأساسية في التربية وبناء الأسرة، كما تتعارض مع طبيعتها الفسيولوجية والعقلية والروحية والاجتماعية**

الباب الرابع

الصَّحوة الإسلاميَّة:

جذبت الصَّحوة الإسلامية عددًا من المثقَّفين الغربيين الذين كانوا يبحثون عن دين ينقذ أرواحهم من الضياع بعد فشل دعواتهم العلمانية ومناهجهم الفلسفية المادية، وقد كشفت الصحوة مجموعة حقائق أساسية تصادم ثلاث معتقدات

سياسية غربية لطالما حاول الغرب غرسها في نفوس المسلمين، وهي:

- الفصل بين السياسة والدِّين.
- نشر الفكر القوميِّ والعلمانيِّ.
- محاربة التوحيد القائم على عبادة الله وحده.

التغريب والعلمانية:

يبدو أنَّ الصحوة شغلت القوى المعارضة للإسلام، فراحوا يبحثون عن أسباب هذه العودة، وعرفوا أنَّه لا يمكن أن ينهض المسلمون إلا بالعودة إلى شريعة الإسلام وتطبيقها فعملوا على تدمير سعي المسلمين إلى دينهم عن طريق نشر فكرة عالمية الحضارة، هذه المقولة الخادعة التي تعمل على تجريد الإسلام من قوَّته الذَّاتية التي تحميه من أعدائه، كما دعوا إلى أيديولوجياتٍ متعدِّدة؛ كالعلمانية والقومية والماركسية والديمقراطية، والتي ثبت مع مرور الأيام أنَّ هذه الأيديولوجيات هي وجهاتُ نظرٍ عقليةٌ معرَّضةٌ للخطأ والصَّواب، كما أنَّه لا يصحُّ تطبيقها في كلِّ مكان وزمان، لذلك سقطت عندما تمَّ تطبيقها في غير مجتمعاتها.

الاستشراق والتنصير:

إنَّ الحرب ضدَّ الإسلام لم تتوقَّف عند هذا الحدِّ فقد ظهر الاستشراق الذي يعدُّ معملاً لإنتاج الشُبهات التي تستهدف الإسلام، وظهر معه التنصير الذي يعمل على نشر هذه الشبهات عن طريق الإرساليات، وقد كانت الغاية منه هي الانتقاص من قيمة الإسلام والتشكيك في ثوابته عند المسلمين وغيرهم على حدّ سواء، فكان الاستشراق والتنصير نوعًا من الغزو الثقافيِّ الذي يدلُّ على كمية الحقد التي يحملها أعداء الإسلام لديننا وعقيدتنا.

فرويد والنفس الإنسانية:

إنَّ المنهج الذي ادَّعاه فرويد في التحليل النفسي والذي يقوم على العلاج من خلال تداعي الأفكار من دون ترتيب أو تسلسل منطقي، ويرتبط بالغرائز الجنسية عند الإنسان، هو منهج ينبع من مشكلة خاصة عند فرويد، كما ترتبط تجاربه بحالات مَرَضيَّة خاصة تمَّ تعميمها على الجنس البشري، وهذا بحدِّ ذاته يعبِّر عن نظرة ضيقة في التعامل مع النفس البشرية التي خلقها الله تعالى.

أسلمة الثقافة:

إنَّ إدراك المسلمين لهذه المخاطر يدفعهم للاعتزاز بدينهم وانتمائهم له، كما يدفعهم

للمحافظة على ثقافتهم الإسلامية العربية في ضوء هذه التحديات من خلال جعل الفكر الإسلاميِّ مادةً تُدرَّس في جامعاتنا وعلى أيدي علماء الإسلام الغيورين على دينهم؛ وذلك لأنَّ وحدة الثقافة تقوم على وحدة الدِّين ووحدة التراث ووحدة اللغة، وهو الدرع الذي يمكن أن يحفظ لهم ثقافتهم من الضياع، ويبشِّر باستمرار الصَّحوة الإسلامية، وينبِّه لما يُحاك لهم من قِبَل أعداء الأمة الإسلامية.

التنوير «مصطلح مسموم»:

ويعني ربط النهضة الإسلامية المعاصرة بعصر التنوير في أوروبا الذي رفع أعلام التحلُّل والإلحاد والإباحية، وبذلك الربط يتم التشويش على أصالتنا وثقافتنا وعقيدتنا، وقد بدأ عصر التنوير الإسلامي كما يدَّعي الغرب منذ حملة نابليون على مصر، والحقيقة هي أنَّ هذه الحملة جاءت لهدم النهضة والقضاء على نوابغ المسلمين، وتثبيت قواعد التغريب والغزو الثقافي والتشكيك في عطاء الشريعة الإسلامية.

> **إدراك المسلمين للمخاطر المحدقة بدينهم يدفعهم للاعتزاز بدينهم وانتمائهم له، كما يدفعهم للمحافظة على ثقافتهم الإسلامية العربية في ضوء هذه التحديات من خلال جعل الفكر الإسلاميِّ مادةً تُدرَّس في الجامعات؛ لأنَّ وحدة الثقافة تقوم على وحدة الدِّين ووحدة التراث ووحدة اللغة**

الباب الخامس

تقديم الإسلام كونه بديلاً للمنهج الماديّ:

أشار المفكّر الألمانيُّ مراد هوفمان[1] في كتابه (الإسلام كبديل) إلى فساد المجتمع الغربيِّ، وتدهور المجتمع الإسلاميِّ، ورأى أنَّ أوَّل أسباب هذا التدهور يعود إلى هجمات المسيحيين على بلاد المسلمين من الغرب، وهجمات المغول عليهم من الشرق، والتي أدَّت إلى سقوط مركز الحضارة الإسلامية في قرطبة وبغداد، أمَّا ثانيهما فيعود إلى ركون المسلمين لنتائج العلوم التي قدَّمها سلفُهم، وعدم إعمال عقولهم في اكتشاف الجديد، ويرى هوفمان أنَّ جميع العلل النفسية والفكرية والاجتماعية التي تعاني منها الشعوب في الدول الصناعية لا يمكن أن تُعالَج إلَّا عن طريق الإسلام.

عطاء التاريخ الإسلاميّ:

لا ريب أنَّ التاريخ له حضورٌ مهمٌّ في حياة المسلمين حيث يستمدُّون قوَّتهم وشخصيَّتهم وثقتهم بأنفسهم من أحداث هذا التاريخ المليء بالانتصارات والمجد والعزة، لكنَّ أعداء الإسلام أشاعوا الأباطيل ودسُّوها في قصص التاريخ الإسلاميِّ ومسيرة أبطاله، وركَّزوا على الخلافات بين الأمراء والحكَّام ليُثبتوا أنَّه غير قادر على جمع المسلمين تحت رايةٍ واحدةٍ، واختلقوا قصصًا عن قادة مسلمين كان لهم بصمةٌ في التاريخ الإسلاميِّ كمعاوية بن أبي سفيان ﷺ وهارون الرشيد والسلطان عبد الحميد، ليُدمِّروا الحقائق التاريخية، ويُحدثوا اضطرابًا واسعًا في فهم التاريخ الإسلاميِّ فهمًا صحيحًا.

التراث الإسلامي:

القرآن والسنة النبوية عقيدةٌ إسلاميةٌ ثابتةٌ لا تدخل في مجال التراث الإسلاميِّ الذي يقتصر على ما قدَّمه العلماء والفقهاء والمؤرخون ضمن إطار الثوابت الدِّينية الإسلامية، وقد اشتملت هذه العقيدة على الدِّين والمعاملات التي تناولت أدقَّ تفاصيل حياة الإنسان والمجتمعات بشكلٍ منظَّم، خلافًا لما جاءت به الفلسفات التي أثبتت علماء الإسلام سقوط أفكارهم؛ كفلاسفة اليونان ومن سار على نهجهم من الفلاسفة العرب.

سقوط الحضارة الغربية:

لم تلبث رسالة الإسلام أن انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها، لكنَّ المسلمين الذين سيطروا على العالم أكثر من ألف سنة غفلوا عن مسؤوليتهم؛ فانتهز أعداء الإسلام الفرصة وبدأ الاستعمار الغربيُّ يغزو بلاد الإسلام، وتقاسموا دُوَله، وأقاموا لليهود وطنًا في قلب فلسطين، وهكذا أصبح المسلمون في

(١) كان سفيرًا لألمانيا لدى كلّ من المغرب والجزائر، أسلم عام ١٩٨٠م بعد أن شاهد صبر المسلمين في حرب التحرير الجزائرية، فراح يبحث عن مصدر هذا الصبر والثبات، فقرأ القرآن، واطّلع على كتب التراث، ووجد فيها إجاباتٍ شافيةً لتساؤلاتٍ كانت قد أوقعته في حيرة، ووجد فيها أيضًا حلولاً ناجعةً لكثير من المشكلات التي يعاني منها الغرب سواء على مستوى الفرد أو المجتمع أو الحكومة. له عدد من الكتب: (الإسلام كبديل)، و(رحلة إلى مكة)، و(الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود)، و(الإسلام عام ٢٠٠٠)، و(خواء الذات والأدمغة المستعمرة)، و(الإسلام كما يراه ألماني مسلم)، توفي عام ٢٠٢٠م.

موقع الدفاع بعد أن كانوا في طلائع المهاجمين: لذلك عليهم أن يكونوا على وعي دائم أنَّ حضارة الغرب الواهنة لن تسقط إلا بعودة ثقتهم بنفسهم ودينهم وثباتهم في وجه عاصفة الحضارة الغربية.

لم تلبث رسالة الإسلام أن انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها، لكنَّ المسلمين بعد أكثر من ألف سنة غفلوا عن مسؤوليتهم؛ فانتهز الأعداء الفرصة وبدأ الاستعمار الغربيُّ يغزو بلاد الإسلام، وتقاسموا دُوَله، وأقاموا لليهود وطنًا في قلب فلسطين وهكذا أصبح المسلمون في موقع الدفاع

الباب السادس

عطاء الإسلام الحضاريُّ للبشريَّة:

تجاوزت الحضارة الإسلامية الحضاراتِ السابقة، وحرَّرت الإنسان من عبوديته. وكان التجريب من أعظم معطيات تلك الحضارة، متمثِّلاً في عمل عديد من الأعلام الكبار كالبيروني وابن الهيثم وجابر بن حيان، فقد ارتقوا بالعلم إلى مجال الإبداع، وأخضعوا المعلومات السابقة للتدقيق والتمحيص، فعلى سبيل المثال: دحض ابن الهيثم ما توصَّل إليه اليونان من أنَّ الرؤية تتمُّ عن طريق أشعةٍ تصدُر من العين حين قال: إنَّ عدسة العين ترى الأشياء من خلال انعكاس الأشعة عليها. ولا ينسى تاريخ العلوم الإسلاميَّة ما قدَّمه المسعوديُّ في كتابه (مروج الذهب) من الحديث عن ظاهرة المدِّ والجزر والتي وصل إليها من خلال التجريب والملاحظة، وابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى، وغيرهم من العلماء المسلمين الذين كان لهم فضلٌ كبيرٌ على البشرية جمعاء.

الفقه والقانون:

أمَّا ما قام به علماء الإسلام في استنباط الفقه من مصادر التشريع، ومن ذلك وضع الشافعي لأسس علم أصول الفقه من خلال كتاب الرسالة، فقد كان بالغ الأهمية، وقد استفاد الغرب من هذه المصادر والقوانين من خلال اتصالهم بعلماء المسلمين في الأندلس ونهلهم من معارف الإسلام. ومن صور استفادة الغرب من المسلمين: قيام بعض الأوروبيين بترجمة كتاب (إكسير) للإمام الشيباني الذي يعدُّ الرائد الأوَّل للفكر القانونيِّ الدوليِّ في العالم، وقد تبيَّن أنَّ فقهاء القانون الدوليِّ لم يأتوا بجديدٍ عمَّا ورد في كتابه، فقد كان قانونًا شاملاً لعلاقات المسلمين مع غيرهم في وقت السِّلم والحرب، والحديث عن حماية السفراء والمهادنات والمعاهدات، وحكم مجرمي الحرب وأحكام الغنائم. وهذا يدحض الادِّعاء الذي يقول بأنَّ الإسلام لا يحتوي على نظامٍ سياسيٍّ، وأنَّه استمدَّ نظامه من الرومان وغيرهم.

ابن خلدون وعلم الاجتماع:

وفي مجال علم الاجتماع يبرز ابن خلدون الذي أفاد ممَّا قدَّمه علماء الإسلام والمؤرخين وكان بحقٍّ رائد علم الاجتماع، وظلَّ ابن خلدون إلى اليوم في نظر علماء الغرب أنفسهم عَلَمًا ومَعْلَمًا، وبذلك حاز قصب السَّبق في مجالي علم الاجتماع والاقتصاد متجاوزًا علماء العصر الحديث شرقًا وغربًا، وتقوم فلسفته على عددٍ من الأصول وهي:

- أنَّ الاجتماع البشريَّ لا يخلو من بداوة وحضارة وأنَّ البداوة أصلٌ لكلِّ حضارة.
- أنَّ نشوء الحضارة واضمحلالها لا يكون طفرةً، وإنَّ تأسيس الدُّول لا يكون إلا بدافعٍ دينيٍّ أو سياسيٍّ، وإنَّ سقوط الدُّول تابعٌ لعاملَيْن اثنين: إمَّا الترف وإمَّا الطغيان.
- أنَّ الأمم المغلوبة مولعةٌ بالاقتداء بالأمم الغالبة، وإنَّ الأمَّة إذا غُلبت أسرع إليها الفناء.

لقد استمدَّ ابن خلدون مفاهيمه في التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد من القرآن الكريم، وقد كان في عمله ملتزمًا بمفهوم الإسلام القائم على الموازنة بين الروح والمادة والدِّين والعلم والعقل والنقل؛ لذلك فإنَّ كتبه لا تزال حتَّى اليوم مرجعًا في التاريخ العربي والإسلاميِّ.

مناهج علماء المسلمين في البحث العلمي:

لم يكن منهج العلماء المسلمين في البحث العلميِّ يعتمد على الذاكرة، بل كانوا يعتمدون على الوثائق المدوَّنة؛ فكانوا إذا أخذوا من كتابٍ راعَوا الأمانة العلمية، فيذكرون اسم المصدر المأخوذ منه، ويتحقَّقون من نسبة النصِّ إلى مصدره، ويذكرون جهود العلماء السابقين في العلم الذي يُكتب فيه. وفي الحقيقة فإنَّ علماء الحديث كانوا السبَّاقين في الالتزام بمنهج البحث العلميِّ وتوثيق الروايات وإسنادها ونقلها. هذا ولم يتعارض عند علماء الإسلام الدِّينُ مع العلم كما حدث في الفكر الغربي، فالعقل لا يمكن أن يصل إلى اليقين ما لم يمدُّه الله سبحان وتعالى بهدايته وعونه.

عيد سعيد!

أ. عبد المجيد بدوي

في النصوص الشرعية قسمة ثنائية للشقي والسعيد، فالسعادة في دخول الجنة، لكن ماذا في الجنة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] في الجنة الرضا، فإذا كان السعيد من حظي بالجنة، ومن حظي بالجنة رضي، فالسعيد الرضيّ، والسعادة الرضا.

لم يَعِدِ الله نبيَّه أن يسعده، بل وعده أن يرضيه ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] وكذلك وعد الصديق ﷺ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ٢١] ثم وصل الوعد إلى كل من دخل الجنة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فإذا أردنا السعادة فعلينا بالرضا.

كيف نرضى ونسعد وواقعنا أليم؟ هذا يحتاج إلى حكمة تخترق حجب الواقع حتى تصل إلى أعماق الأمور وغاياتها البعيدة، لا يمكن لبحّار نُزع لوح من سفينته أن يسعد بذلك، ولا يمكن لأب أن يرضى بقتل ابنه، لكنهم لو علموا ما صُرف عنهم من الشرِّ لرضوا. قال الشاعر:

كن عن همومك معرضًا وكِلِ الأمور إلى القضا
فلربّ أمرٍ مُسخطٍ لك في عواقبه رضا
ولربّما اتّسع المضيق وربّما ضاق الفضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن مُعترضا
الله عوّدك الجميل فَقِسْ على ما قد مضى

فرح وكآبة

أ. مهند الفيومي

تكبيرات العيد تفوح كرائحة المعمول في الأفران، عندما كنا صغارًا كان العيد أجمل باجتماع العائلة، واللعب بحارتنا بالأحجار السبعة، والغمّيضة، وركوب الأراجيح، وشراء الألعاب، وجمع (العيديات)، ثم كبرنا فجأة في وقت الحرب، فقتل أرحامنا وهجّرنا، ومدينة الملاهي صارت كمدينة الأشباح، وصارت رائحة المعمول في أنف الفقير كنفحة العذاب..

ابتلينا بحاكمٍ طاغٍ متمَسِّكٍ بكرسيه؛ يعتبر الفرح خيانةً، والكآبة وطنيّةً، فكم من أرجوحةٍ مجروحةٍ تبكي بصوتٍ مبحوح، وكم من حلمٍ يولد ثم يوأد...

ومع اختلاج مشاعر الفرح والكآبة، يبقى الأمل بالله ليعيد العيد إلينا، عيدٌ ينزاح فيه الظالم، فمهما طال اعتقال الفرح، لابد للكآبة أن تنهزم.

ننظر إلى أولادنا في غربتهم يصنعون أقارب؛ دون قرابة رحم، ويربطون الأراجيح بين الأشجار اليابسة بحبل الأمل بالله، ويفرحون بـ(عيدية) زهيدة، قليلةِ القيمةِ عندنا؛ عظيمةِ القدر عندهم، ويصوغون من الوسائد والفرش مدينةَ ملاهٍ أبهى في عيونهم من مدن الملاهي الضخمة.

جاء العيد لنستعيد الفرح من أنياب الكآبة، ولنفرح رغم المآسي، ولنكبر الله ونحمده على نعمه، سائلين المولى جل وعلا أن نرى عيد النصر والتمكين قريبًا..

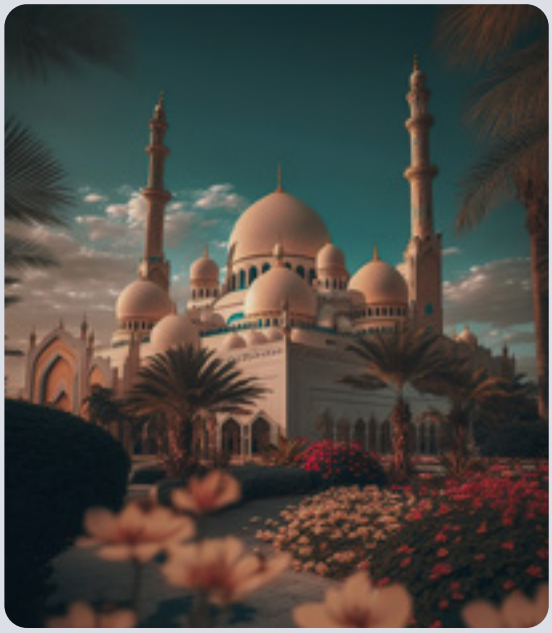

في حاشية كوب شاي

أ. محمد العلي

في زحمة الحياة أحيانًا تشعر بأنك تحتاج إلى أن تستريح جانبًا وتضع عنك كل الهموم والمشاغل، لتجلس مع نفسك، وتتعرف إلى شخصيتك التي تشوّهت مع مرور الزمن بفعل عوامل النحت والتعرية دون أن تلاحظ ذلك لأنك ببساطة تعيش اللحظة المجردة من الماضي والمستقبل.

أنتَ سفينة تتقاذفك الهموم والمصائب في عرض الغربة، تربتك أصيبت بالتصحُّر، وثقب الأوزون يتسع في داخلك، كل الزلازل التي ضربت مناطقك الشمالية والوسطى لم تستطع أن توقظك، ومع ذلك تمارس حياتك بشكل طبيعي ومألوف، لا زلت تتحلى بأخلاق الجَمَل لتشرح للآخرين أنك إنسان طيّب، وأن كل أبناء بلدك يحملون في دواخلهم جينات إنسانية تؤهلهم لأن يعيشوا كبشر، وأن كل جرائم التطهير الطائفي والعرقي التي ارتكبت في القرون السبعة الأخيرة لا توازي ما ارتكب بحقهم وما يرتكب.

احتسِ الشاي يا صديقي.. بلا سكر، لا طعم حلوًا في هذه الحياة، فلماذا تقابل الناس -كل الناس- بهذه الابتسامة المجامِلة البليدة! وعندما تنتهي من تأملاتك الفارغة -وتتمكن عبثًا من التعرف إلى ملامحك- أكمل طريقك، فما زال أمامك الكثير لتصل، وعندما تصل ستكتشف أنك كنت تسير في الطريق الخطأ.

سأحرق يده!

أ. عبد الله الصالح

رتَّبت الأم الغرفة، وأمرت أولادها الصغار ألا يقتربوا من خزانتها، وهددتهم قائلة: سأحرق يد من يقترب من الخزانة.

بعد سويعة اقتربت ابنتُها ذات الأعوام الأربعة من الخزانة وتسلقت عليها، رآها أخوها الذي يكبرها بعامين فلمعت في ذهنه كلمات أمه، استلَّ سيخ نشر الغسيل من موضعه، وأسرع إلى المدفأة وأدخله في ثقب التهوية أعلاها حتى وصل إلى باطن اللهب، سخنه ثم أخرجه وذهب إلى أخته، طلب منها وضع يدها على الطاولة، فوضعتها بكل براءة، وقام بكيّ ظهر كفها بالسيخ المحمّى غير مدرك العواقب.

صرخت الطفلة صرخة قوية وانسلخ جلد كفها موضع الكي، أتت الأم لترى ما حصل، فقال الطفل: لقد أحرقت يدها لأنها اقتربت من الخزانة، أنت قلت ذلك! هنالك أدركت الأم كيف أن عليها أن تنتبه لما تقول، وألا تهدد بما لا يصح فعله. والحمد لله أنها تلقت الأمر بصبر ولم تعاقب ابنها كي لا تصبح المصيبة اثنتين.

إنَّ معيَ ربي

د.خير الله طالب

سرى موسى عليه السلام بقومه للنجاة بهم، فتَبِعَهم فرعون بجُنده حتى صار البحرُ أمامَهم، فأيقنوا بالهلاك، فقال موسى واثقًا: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فأمَرهُ الله أن يضربَ البحرَ بعصاهُ، فعَبَروا، وانطبق البحر على عدوِّهم ليكون لمن خلفه آية.

مشهدٌ يتكرَّر لأهل الإسلام: تدْلَهمُّ الخطوب، يتكالبُ الأعداء، يُحكمون الخطط، يُطلقون البرامج، يُنفقون الخزائن، يَبطشون بالجميع.. حتى ما يُظنُّ أن تبقى حياةٌ ولا أمةٌ ولا دين. ثم يبزغ الفجر من جديد.

أرصدوا شبابهم لقتل النبي ﷺ ليلة هجرته، واشتدَّ كيدُهم ومكرُهم، فنجَّاه الله من مكرهم وفُتحت له البلاد، ودخل الناس في الدين أفواجًا. وارتدَّ ناسٌ عن دينهم بعد موته، وقُتل عمر وعثمان ﷺ ووقعت الفِتن حتى ظنَّ البعض أنَّ شجرة الإسلام ستسقط، وإذا بها تضرب عميقًا في الأرض وتبلُغ أغصانها أعالي السماء وأقاصي الأرض. وعندما تتابعت الحملات الصليبية واحتلت بيت المقدس، واجتاح المغول بغداد وجرت الأنهار بالدماء، وتآمرَ الحلفاء على دولة بني عثمان، وجثم الاحتلال والاستغراب.. إذا بحروب التحرُّر والتطهُّر منه تملأ بلدان العالم الإسلامي.

واليوم تجري محاولاتٌ مستميتةٌ لاجتثاث الفضيلة والأسرة والإسلام، وشرعنة الرذيلة والفُحش، وتجريم الحُرية والكرامة والعدالة، وتلفيق الأديان، وعقد الاصطفافات الدولية، والتسويات الجائرة على حساب الشعوب الناهضة، وغيرها من الأحداث والمكائد.. وتبدأ النفوس القلقة بالشعور بالعدّ التنازلي لبدء إعدامهم أو تشريدهم من جديد أو بيعهم على طاولة المفاوضات.

هنا يصيح الواثقون: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. عَرَفوا غايةَ الوُجود، فتقلَّبوا في منازل الابتلاء، وعلموا أنها مراحلُ مطويّةٌ، بمقادير عُلوية، وسُنن إلهية. وفهموا أنَّه حتى يكون الله معنا، فلا بدّ أن نكون معه، نستقي من وَحيه، وندور مع أمره، ونؤمن بقدره خيره وشره وحلوه ومره. يجدون في كلام العلي الكبير أنَّه عزَّ وجلَّ مع الصابرين، ومع المتقين، ومع المؤمنين[1]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وإذا كنتم كذلك من الصبر والتقوى والإيمان والإحسان ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

تتجلَّى معيّةُ العبد لربه في بوصِلَة قلبه، من يُحبُّ؟ وهل يُقدِّم أمرَ المحبوب على كلِّ حبيب؟ ومن يرجو؟ وهل يَصدُقُ الطلبَ بيقين؟ دون استشراف ما بأيدي المخلوقين، وممن يخاف؟ وهل يترك ما يُغضبه ولو غضب الناس جميعًا، ولمن يعمل؟ وهل يتحرَّك ابتغاء وجه مولاه، أم ابتغاءَ وجوه عبيده خجلاً أو طمعًا أو خوفًا؟ وعلى من يعتمد ويتوكَّل؟ وهل يبذل الأسباب يقينًا في حُسن العواقب، دون همّ وقلق؟ ثم هل يهتدي بنور الله ووحيه، بعيدًا عن الظنون والأوهام والروغان والتلفيق؟

العبادات القلبية هذه تبني إنسانًا بقوّة داخلية تخترق أمواجَ الحياة الصعبة، ببصيرة فائقة في رؤية الأحداث بعين السُّنن، وباستقلالية مستقوية بصاحب الملكوت وحده عن التعلُّق بالأشخاص مهما كان صلاحُهم وإنجازُهم، ومهما بلغ تخويفُهم وبطشُهم، وبمعرفةٍ مكتفية بما أنزل الله. أولئك هم أقدرُ الناس على نسج العلاقات الصحية المتينة وبناء المجتمعات المنتجة الرصينة. وهم خريجو موائد القرآن وقدوات التربية.

تشرَّد أهل الشام من فلسطين كالأيتام في موائد اللئام، وهم اليوم يملؤون الساحات، ويُشكِّلون رقمًا صعبًا، وقضية القدس تفرض نفسها في جميع المعادلات، وإنما هو ثبات قلوب المرابطين في الأقصى، رغم المخمصة والمسغبة والرعب والعنف. وما أحوج أهل الشام الناهضين في سوريا إلى أن يتعلَّموا من إخوانهم استصحابَ الأمل ومُواصلة العمل، فمَن كان مع الله كان الله معه.

وسيبقى شعار المرابطين على ثغور قضاياهم كلما اشتدت الخطوب: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

(١) {مع الصابرين} (في خمس مواضع منها البقرة: ١٥٣)، {مع المتقين} (في ثلاث مواضع منها البقرة ١٩٤)، {مع المؤمنين} (الأنفال: ١٩).

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

رواء

نتائج
مسابقة أقلام موهوبة

التي أقامتها مجلة رواء بالتعاون مع اتحاد طلبة سورية الأحرار

الفائز الأول
محمد غياث إستانبولي
جامعة الشام العالمية

الفائز الثاني
علاء الدين النصار
جامعة الشام العالمية

الفائز الثالث
عبد المنعم محمد العلي
جامعة حلب الحرة

الفائز الرابع
سليم مازن الفوزو
جامعة المعالي

الفائز الخامس
همام أحمد إبراهيم
جامعة الشام العالمية

الفائز السادس
بشار محمد المقدم
جامعة حلب الحرة

الفائز السابع
محمد محمود الحافظ خيتي
جامعة المعالي

الفائز الثامن
محمد محيمد
جامعة حلب الحرة

الفائز التاسع
أغيد المحمد
جامعة الشام العالمية

الفائز العاشر
تالا جعفور
جامعة إدلب

تتوجه مجلة رواء بالتعاون مع اتحاد طلبة سوريا الأحرار بأسمى التهاني والتبريكات للفائزين بهذه المسابقة